المسلمـــون

بين الازدهار والانكسار

مأمـــون غـــريب

الناشر
مكتبة غريب
٢٠١ شارع كامل صدقي (الفجالة)
تليفون ٩٠٢١٠٧

مقـــدمـة

ليست هذه محاولة لتسجيل كل تفاصيل قصة انتصار الإسلام . . فمثل هذه المحاولة تحتاج إلى أقلام مئات المؤرخين والمفكرين . . ولكنها مجرد وقفات أمام أهم علامات الطريق فى التاريخ الإسلامى ومسيرة الحضارة الإسلامية . .

وقفات أمام الإشعاعات الرائعة فى تلك المسيرة ، وكيف تحولت الرسالة الخالدة التى بدأت بدعوة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام إلى التوحيد فى أم القرى ، ولم تلبث هذه الدعوة أن ثبتت جذورها فى شبه الجزيرة العربية ، ثم انطلقت فيما يشبه الإعصار إلى مختلف أرجاء الدنيا . .

وإذا بهذه الدعوة التى كان يتصدى لها فى أول الأمر بعض عتاة مكة وسفهائها ، تكتسح أمام زحفها الكاسح الإمبراطورية الفارسية والرومانية ، وتبنى على الأرض تاريخاً جديداً . . وحياة جديدة . . وإنساناً جديداً . .

والمتأمل لتاريخ الدعوة الإسلامية ينتابه العجب وهو يرى الدعوة التى كانت محاصرة فى قرية (مكـة) يرتفع لواؤها فيما بين الصين شرقاً ، إلى المحيط الأطلنطى غرباً ، وتضم بين أرجائها الواسعة الأندلس ، وجنوب فرنسا . . وتصبح قاب قوسين أو أدنى من التوغل داخل أوربا كلها ، لولا بعض الظروف التاريخية التى حالت دون تحقيق هذه الأحلام العظيمة التى كانت تراود خيال بعض الفـاتحين المسلمين العظام من أمثال موسى بن نصير الذى كان من آماله أن يجتاح أوربا وصـولاً إلى القسـطنـطينية ، مروراً بالـدردنيل حتى يمكن الوصول إلى دمشق عاصمة الخلافة الإسلامية عبر تركيا . .

هذا المـد الإسـلامى العـظيم لم يكن مجرد ضم أراض جديدة شاسعة . . ولم يكن مجرد إمبراطورية مترامية الأطراف لا تغرب الشمس عن ممتلكاتها . . بصورة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً . . !

ولكن الأمر كان أبعد من ذلك بكثير . . فقد كان وراء هذا الزحف الهائل عقيدة شكلت وجدان المسلمين ، وجعلت لهم رؤية مستنيرة للحياة وما وراء الحياة . .

وحـول هذه العقيدة تشكلت الحضارة الإسلامية التى غزت القلوب والعقول ، ومـدت أضواءها إلى أبعد مدى يصل إليه الخيال . .

فلم يكن الزحف الإسلامى مجرد زحف عسكرى يهدف إلى انتشار نور الإسلام ، فالإسلام لم ينتشر بحد السيف ، فقد ترك حرية اعتناقه للناس ، ولم يرغم أحداً على الإيمان به ، وتعاليمه تحض على ذلك على أساس أنه : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » . .

والدليل على ذلك الملايين التى مازالت تعتنق عقائد غير الإسلام فى ديار المسلمين ، ولم يجبرهم أحد على ذلك ، مع مضى هذا التاريخ الإسلامى الطويل المديد . .

ولكن الحضارة الإسلامية ازدهرت بما فيها من مقومات ، وبما فيها من قدرة على الاحتكاك بالحضارات الأخرى ، وما فيها أيضاً من سعة الأفق على معرفة أسرار الكون ، وأسرار الحياة . . فمهدت لظهور أفذاذ العلماء والمفكرين والأدباء . . فلا حجر على حرية ، ولا جمود أمام التطور ، ولا خوف من الخوض فى القضايا الفكرية العميقة ، فازدهرت الفلسفة والفكر فى ظل الإسلام . . وبينما كانت محاكم التفتيش فى أوربا تعلن وصايتها على الفكر والعلم ، وتعتبر ما يختلف مع الكنيسة هرطقة وكفراً ، ومصير من يجرؤ على المجاهرة حتى برأى علمى هو المحاكمة التى قد تفضى إلى الموت كما فعلوا مع جاليليو . .

فى هذا الوقت، كان فى العالم الإسلامى التسامح الدينى ، وحرية الفكر والاعتقاد ، والأخذ بالعلم لفهم كتاب الكون بنفس الدافع الذى يدفعهم إلى فهم كتاب الله . .

فلم يكن غريباً أن يظهر على طول التاريخ الإسلامى القادة الكبار . . والساسة العظام ... وكبار المفكرين وأئمة التشريع . . وفى ظلال هذه الحضارة البازغة استظل الغرب بها ، وكانت هى مفتاح حضارته ونهوضه . .

وقد بلغ قمة المد الإسلامى فى العصر الأموى ، ثم حافظت الدولة العباسية إبان قوتها على أجزاء هذه الإمبراطورية الشاسعة ، وأخمدت ما قام بها من ثورات وفتن ، إلى أن ضعف سلطانها المركزى ، فتحولت إلى دويلات . . وكان ذلك بداية الأطماع الأجنبية فى العالم الإسلامى . . متمثلاً فى هجمات المغول والتتار ، التى استطاعت أن تتصدى لها مصر ، وتقهر نفوذهم كما حدث أن هزم قطز جحافل التتار فى (عين جالوت) . . ثم أخذ الغرب يتطلع إلى مناطق الشرق الأوسط ، وكانت الحروب الصليبية التى انتهت بانتصارات صلاح الدين . .

و . . بدأ بعد ذلك التقدم حيناً ، والتخلف أحياناً . . وشروق المجد وغروبه . . وقوته ، وانحطاطه . وبين المد والجزر . . كانت هناك وقفات . .

فيوم عرفت الأمة الإسلامية تعاليم الإسلام وروحه تقدمت ونهضت . . وارتفعت أعلامها فى كل مكان . ويوم تدير ظهرها إلى تعاليم هذا الدين ويتحول إلى مجرد طقوس بلا روح تفتر همة الأمة وتقع جاثية على ركبتيها أمام هول من لا يرحمونها . .

وبين جذوة التقدم والتخاذل . . والانتصار والهزيمة . . والشروق والغروب . . ينتاب الدارس المنصف لهذا التاريخ الإسلامىّ العريق وقفات تأملية . .

يقول المؤرخ جيبون وهو يتحدث عن بدء شرارة توهج الفتوحات الإسلامية فى عهد الراشدين :

« وبقوة واحدة ونجاح واحد ، زحف العرب على الروم والفرس وأصبحت الدولتان المتنافستان فى ساعة واحدة فريسة لعدو لم يزل موضع الازدراء والاحتقار منهما . . فى عشر سنوات من أيام حكم عمر . . أخضع العرب لسلطانه ستة وثلاثين ألفا من المدن والقلاع ، خربوا أربعة آلاف كنيسة ومعبد للكفار ، وأنشأوا أربعة عشر ألفاً من المساجد لعبادة المسلمين - وعلى رأس قرن من هجرة محمد عليه الصلاة والسلام - من مكة ، امتد سلطان خلفائه من الهند إلى المحيط الأطلنطى ، ورفرف علم الإسلام على أقطار مختلفة نائية ، كفارس وسورية ومصر وأسبانيا » . .

قال هذا المؤرخ هذه الكلمات فى كتابه : « انهيار الدولة الرومانية وسقوطها » . .

لم يكن هذا الانطلاق الضخم نتيجة العدد ، فلم يكن عرب الجزيرة إلا قلة بالنسبة لإمبراطوريتى الفرس والروم ، ولم يكن سببه هو قدرتهم العسكرية ، فلم يكن لهم قدرة عسكرية ، فقد سقطت مكة ببساطة فى يد الأحباش عندما حاولوا الاعتداء على بيت الله الحرام ، لولا أن سلط الله عليهم طيراً أبابيل .

إذًا لم تكن هذه الانتصارات الهائلة إلا بفضل العقيدة الإسلامية التى جعلت الموت عندهم أحب إليهم من الحياة ، وجعلت منهم عقيدة الجهاد فى سبيل الله قوة ضاربة ، شعارها كما أعلنه الصديق : « احرص على الموت توهب لك الحياة » .

فقد كان الجهاد فى سبيل الله ، والجود بالدم فى سبيل انتشار الإسلام هدف المسلمين الذين كان لقاء الله عندهم أحب إليهم من الدنيا وما فيها ، وفى آيات القرآن الكريم ما يدفعهم إلى ذلك :

﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

[سورة « الصف » آية رقم « ١٠ »]

وقوله تعالى : **﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ .**

[سورة « الأنفال » آية رقم « ٥٤ »]

كما أن أحـاديث الـرسول عليه الصلاة والسلام كانت تحثهم على الجهاد لما فيه من مثوبة وأجر عظيم ، فهو القائل : « مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القانت الذى لا يفتر عن صيام وقيام حتى يرجع » . .

وقد حفظوا عن الرسول قوله : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » . .

ولم يكن هدف المسلمـين وهم يتجهـون شرقـاً وغـربـاً لنشر دين الله هو مجرد تكـوين إمبراطورية ، أو بناء مجد شخصى ، أو بحثاً عن الكنوز والثروات . . ولكنهم كانوا يريدون أن ينشروا الإسلام كعقيدة بين ربوع البشر . . فالإسلام لم يأت للأمة العربية وحدها ، ولكنه جاء للناس كافة : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ .

إذن فقـد كانت فتـوحاتهم ذات رسالة ، والرسالة هى أن ينتشر نور الإسلام بين ربوع الدنيا ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ .

[سورة « آل عمران » آية رقم « ١٠٤ »]

فالفتوحات الإسلامية إذن لم تكن مجرد غزو لضم أراض جديدة للدولة الإسلامية الصاعدة ، ولكنها كانت لنشر نور الإسلام ليغزو القلوب والعقول ويمد حضارته إلى أبعد مدى . .

ولكن الأسى ينتاب الذى يتابع هذه الانتصارات الرائعة ، ويتساءل : لماذا انحسر هذا المد الهائل ؟ ولماذا ضعف المسلمون ؟ ولماذا أصبحوا الآن فى دائرة العالم الثالث ؟ . .

الإجابة على هذه الأسئلة إجابة صحيحة تضـعنا أمام رؤية واضحة . . لنعيد إلى أنفسنا مجداً ذوى . . وحضارة اضمحلت . . وانتصارات ذابت . .

هل يمكن أن نعود إلى فهم ديننا فهما صحيحا ليكون لنا دور فى عالم اليوم ؟ . . دور إيجابى لا سلبى ! . . نعـطى العـالم . . ولا نكـون عالة على حضارة الغرب . . آخذين بلا عطاء . . منقادين إليها بلا إرادة . . هل يمكننا أن نأخذ منها أحسن ما فيها ؟ . . ونعطيها ما فى ديننا الحنيف من قيم رفيعة تجعل من الإنسان إنساناً ينطلق بجناح من الروح . . وجناح من العلم . . فنزيد بذلـك من إثـراء الحياة . . !! ويكـون لنا دور فى عالم لا يحترم إلا الأقوياء . . وصانعى القرار لأنفسهم بأنفسهم . .

متى يكون لنا هذا الدور ! . .

لنقرأ تاريخنا حتى نعرف مكان أقدامنا . . !

مأمـون غـريب

١

نــور الإســلام

« إن مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة فى زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبـون ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ . . فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » . .

[حــديث شــريف]

□ ١ □

نــور الاســلام

لا شك أن الرسالة الخالدة . . رسالة الإسلام التى جاء بها النبى الخاتم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام . . كانت مرحلة من أهم مراحل التاريخ تأثيرا على كل المستويات . . فقد كانت بداية لتغيير أوضاع العالم كله . . وليس على مستوى شبه الجزيرة العربية وحدها . . فقد جاء الإسلام بقيم جديدة . . ومبادىء جديدة . . وأفكار جديدة . . ورؤية مستنيرة لما ينبغى أن يكون عليه الإنسان المسلم فى كل العصور . . بجانب أن كل هذه الزوايا المتعددة للإسلام تدور حول محور الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . .

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ . .

وهنا يتبلور تساؤل مهم : « كيف يتسنى لرجل أمى مهما كانت عبقريته أن يغير مسار التاريخ الإنسانى كله لو لم يكن وراءه سند من الله . . ؟ » . .

ما أكثر ما شاهدت البشرية من فلاسفة ملأوا الدنيا أفكاراً وفلسفات . . وماتت هذه الفلسفات ، ولم يعد لها أى صدى سوى ناحيتها التاريخية . . أو ظلت حبيسة الدراسة الأكاديمية ، ولكن ليس لها خطرها على مختلف مستويات المجتمعات البشرية . . بعكس الرسالة الخالدة التى أصبحت سلوكاً ومنهاج حياة . . وعقيدة راسخة فى العقول والقلوب . . تحرك الناس وتؤثر فيهم . . وترسم لهم معالم الطريق . . وتوضح سلوكهم فى مختلف عصور التاريخ ، ولا يمكن لعقيدة أن يكون لها هذه المكانة فى القلوب والعقول لو لم يكن لها سند من الله .

وكم شهدت الإنسانية مفكرين كباراً . . أو شعراء عظاماً . . كل مآثرهم أن نقف أمام هذه الأفكار منبهرين حيناً ، أو مرددين بعض الكلمات التى عاشت لهم . . ولكن هذه الآراء عندما تقرن بوهج الرسالة الخالدة تتضاءل وتتلاشى ، وتصبح المقارنة بينها وبين ما جاء به خاتم رسل الله ضرباً من المستحيل . .

ومن هنا كانت الرسالة الخالدة بداية لتغيير مسار الإنسانية كلها ، ولفت الأنظار إلى هذه القوة الصاعدة الجديدة التى انبثقت فى شبه الجزيرة العربية ، والتى سرعان ما حولت هذه القبائل

التى لا يأبه بها أحد إلى أقوى قوة عرفها العالم . . قوة قهرت الفرس والروم أعظم إمبراطوريتين فى التاريخ . . لتصبح هى القوة الأولى فى العالم . . ولم يعد غريباً أن نقرأ لرجل . . مثل (سميون أوكلى) فى حديثه عن تاريخ العرب :

« أبرز العرب أنفسهم منذ أيام محمد ، على صعيد عالمى ، بفضل قوتهم العسكرية وتفوقهم العلمى ، وبهذا لا يقل تفهم شئونهم ضرورةً إن لم يزد عن تفهم أى شعب من الشعوب التى ازدهرت منذ أن سارت الإمبراطورية الرومانية فى طريق الانحلال » . .

ولكن كيف نعرف مدى ما أحدثه الرسول عليه الصلاة والسلام فى العالم . . ؟

إن الإجابة على هذا السؤال المهم تقتضى منا أن نعرف كيف كان العالم قبل الرسالة وكيف أصبح بعدها . .

أو على حد تعبير « فريمان » وهو يتحدث عن تاريخ العرب : « علينا أن ندرك طبيعة ما أحدثه محمد بن عبد الله من تبدلات وطبيعة نتائجها . . أن نفهم تفهما كاملاً حقيقة الأوضاع التى وجدها قائمة عند ظهوره فى بلاده العربية وفى إمبراطوريتى الرومان والفرس المجاورتين لبلاده ، وهما الإمبراطوريتان اللتان احتلت قواتُ حلفائه المنتصرة ثانيتهما احتلالاً كاملاً ، واحتلت أجزاء كبيرة من أولاهما » . .

قبل البعثة : ظلام البشرية

كانت شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام لا خطر منها . . فهى قبائل متنافرة ، وأهم بقعة بها « مكة » التى عرفت شيئاً من الحضارة بحكم أنها عرفت التجارة بين الشام واليمن . . وبها بيت الله الحرام الذى تهفو إليه كل القلوب منذ أقام قواعده إبراهيم الخليل عليه السلام وابنه إسماعيل . . فكان يحج إليه الناس من كل مكان . . وكانت لمكة مكانة فى قلوب العرب لأن بها بيت الله الحرام . . ولكن بيت الله امتلأ بالأصنام التى يعبدها الناس من دون الله بعد أن طال عليهم الأمد ، ونسوا رسالة التوحيد التى نادى بها خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام . . كما تسربت إلى شبه الجزيرة العربية المسيحية واليهودية . . وكان اليهود أغلبهم فى يثرب . . بينما نرى مملكة (اللخميين) جنوب العراق تخضع لنفوذ أكاسرة الفرس ، ومملكة الغساسنة تخضع لنفوذ الرومان ، وبين الفرس والرومان معارك لا تنتهى . . وحروب لا تهدأ . . بينما نرى جنوب شبه الجزيرة . . أى اليمن لم تسلم هى الأخرى من الاحتلال الأجنبى على يد الأحباش ، ولولا جدب الحجاز لسقطت أيضاً فى أيدى الغزاة . .

خريطة العالم المعروف قبل الرسالة إذن كانت تحت سيطرة الفرس الذين يعبدون النار . . أو الرومان ، التى كانت تسوم الخاضعين لها سوء العذاب رغم اعتناقهم للمسيحية . . و . . للقهر . . والظلم . . وسيادة الناس بقوة البطش وهو دستور الحياة فى هذا الزمان . . فالناس سادة . . وعبيد . . وللسادة كل الحقوق . . وليس للعبيد سوى خدمة الأسياد والتسرية عنهم . . حتى لو دفعوا حياتهم ثمناً لرسم ابتسامة على شفتى حاكم متسلط مستبد . . كما يحكى لنا التاريخ عندما كان العبيد يصارعون الأسود فى حلبات المصارعة حتى تنفرج الشفاه عن ضحكات لاهية عابثة ، والأسود تمزق الضحايا من الآدميين . .

فإذا نظرنا إلى نظمهم الاجتماعية هالنا ما يحدث فى بلاد الفرس عندما سادت مذاهب إباحية مثل مذهب (مزدك) الذى يبيح أن يتزوج الولد أمه أو أخته . . والرجل ابنته . . وبذلك يصل الإنسان إلى الحضيض الأخلاقى . . وعندما ساد مذهب « زرادشت » أصبح الضعيف تحت قبضة القوى . . فهو يدعو إلى القوة الغاشمة . . ولا يعرف معنى الرحمة والتواصل الإنسانى . .

وما يقال عن المجتمع الفارسى والرومانى يمكن أن يقال عن المجتمع الهندى والصينى ، فى ظل البوذية والكونفوشيوسية ، أو على حد تعبير الشيخ محمد أبو زهرة :

« إلى أن العالم كله فى الفترة التى كانت قبل المسيح وخاتم النبيين محمد ﷺ كان يموج فى مضطرب فسيح من الآراء والمنازع المتناحرة . . وإنه فى الوقت الذى كانت الوثنية فيه تضيق ذرعاً بالوحدانية التى جاء بها موسى وخلائفه ، وجاء بها عيسى وحملها حواريوه ، كان الشرق الأقصى بعيداً عن هذه الدعوات إلى الوحدانية ، فكانت فيه مجوسية الفرس ، ووثنية الهندوس ، وظلم الطبقات ، ثم كان من وراء ذلك عبادة الأفلاك والنجوم والأرواح فى الصين » .

وأشـــرق النـور فى مكــة

ووسط هذا العالم المضطرب فى كل أرجائه ولد النبى الخاتم . . فكان ميلاده إيذاناً بعصر جديد . . وحياة جديدة . . ورؤية جديدة للحياة فى عالم جديد . . بروح جديدة . . وفكر جديد . . وتشريع جديد . . ويشاء الله أن يكون الميلاد بجانب بيت الله الحرام . . فيشب عن الطوق يتيماً بعد أن فقد والده وهو فى بطن أمه ويفقد أمه وهو فى السادسة من عمره . . ويشب فى كنف جده عبد المطلب ، ثم من بعده عمه أبو طالب . . وهو فى كل هذه المراحل دائم الفكر . . متواصل الأحزان . . يفكر فى الحياة وما وراء الحياة ! . . يتأمل الكواكب والنجوم . . ويتعجب لهؤلاء الذين يقدسون حجارة لا تنفع ولا تضر . . فلا سجد يوماً لصنم ، ولا تاقت نفسه إلى لهو . . وكان من رجاحة العقل وقوة الوجدان ، ونظافة اليد لدرجة أنه أصبح يلقب

« بالأمين » ، حتى إذا بلغ الأربعين من عمره . . جاءه الوحى . . ليكون محمد بن عبد الله آخر رسل الله . . ويروى البخارى كيف جاءه الوحى بقوله :

عن عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها أنها قالت : « أول ما بدىء به الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة ، فيتزود لمثلها حتى جاء الحق وهو فى غار حراء » . .

وكان على النبى أن يبلغ الرسالة ، وتبليغ الرسالة يحتاج إلى صبر وجلد وشجاعة ، بجانب البلاغة ورحابة الصدر واتزان العقل ، وكان النبى ﷺ يمتاز بكل هذه الصفات . . بل إنه قد تدرب على التأمل العقلى منذ صغره . . فقد كان دائم التفكير فى الكون وما وراء الكون قبل الرسالة حتى شفت روحه وامتلأ صفاء . . وكان ذلك تمهيداً لحمل أعباء الرسالة الخالدة . . وكان أول من أسلم أبو بكر الصديق حتى قال عنه ﷺ : « ما دعوت أحداً للإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر (يقصد بالكبوة التردد) » . .

كما دخل الإسلام بدخول أبى بكر فيه زمرة من الصحابة : طلحة بن عبيد الله ، وعثمان ابن عفان ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وأبو عبيدة ابن الجراح ، ومن الأطفال على ابن أبى طالب . .

ويدأ الإسلام يشق طريقه إلى القلوب والعقول . . بدأ سراً . . ثم بدأ الرسول إعلانه على الناس . . وجن جنون مكة . . عذب الأقوياء العبيد واضطهدوا الضعفاء ، ثم تحولت الحرب ضد المسلمين إلى معركة شرسة ، حتى أن النبى ﷺ أمر بعض الصحابة بالهجرة إلى الحبشة للنجاة من بطش مكة . . وكانت هجرة النبى ﷺ مع أبى بكر الصديق إلى يثرب بعد أن أمر أصحابه بالهجرة إليها . . ليبدأ الإسلام قفزة هائلة نحو السيطرة على شبه الجزيرة العربية ، فقد بدأت غزوات النبى ﷺ مع قريش حتى انتهت هذه الغزوات بهزيمة مكة . . ودخول الرسول ﷺ إليها ليحطم الأصنام ، ويطهرها من الرجس ، ثم يأتى بعد ذلك عام الوفود حيث دخل الناس فى دين الله أفواجاً . . وفى الوقت نفسه الذى كان فيه الإسلام يدعم وجوده فى جزيرة العرب ، كان النبى ﷺ يرسل رسله إلى الملوك والرؤساء فى مختلف أنحاء العالم يدعوهم فيه للدخول فى الإسلام . . وهذا يدل على عالمية الإسلام . . وأنه جاء للناس كافة . . لا إلى العرب فقط كما يدعى البعض لقوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ . .

نـواة الدولــة الإســـلامية

ثلاثة وعشرون عاماً قضاها النبى ﷺ فى تبليغ رسالة الله إلى الناس . . بدأت بالدعوة فى مكة ، وانتهت بدخول الناس فى دين الله أفواجاً ، حيث دخلت الجزيرة العربية كلها فى الإسلام فى عهد رسول الله ﷺ .

وهكذا وضع النبى ﷺ كل مقومات المجتمع الإسلامى السليم قدوة وسلوكاً وعملاً وعلماً ، لكى يسود العالم كله فيما بعد ، ومن هنا لابد من التوقف أمام صاحب الرسالة الخالدة لنرى كيف أقام المجتمع الإسلامى على أسس ستظل نور هداية للناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وكانت رسالته الخالدة نقطة تحول كبرى ، ليس فى شبه الجزيرة العربية وحدها ، ولكن نقطة تحول فى التاريخ العالمى كله . .

ففى السنة العاشرة للهجرة . . أى فى العام الذى أقبلت فيه على المدينة مختلف الوفود من مختلف القبائل . . كان النبى ﷺ فى مسجده والناس من حوله يعلمهم أمور دينهم . . وما ينبغى على المسلم أن يكون عليه . . فهى الفترة التى انتهت من الغزوات والحروب وقد اقترب الرحيل إلى الرفيق الأعلى . . وكانت هذه الفترة من الفترات التى تفرغ فيها الناس ليعرفوا الكثير من تعليم الدين وتعاليمه ، وكان جبريل عليه السلام ينزل مرة فى العام يدارسه القرآن ، وفى العام الأخير دارسه القرآن مرتين . . أخذ النبى ﷺ يحدث الناس حديثاً هادئاً . . مرتباً . . حتى يحفظه الناس ولا يختلفوا من بعده . . وقال لهم فيما قال : « إن كذبا علىَّ ليس ككذب على أحد . . من كذب علىَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . .

[رواه البخارى]

وقال لهم فيما رواه البخارى أيضاً : « إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم قريب ، فأنا أولاكم به . . وإذا سمعتم الحديث عنى ما تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه بعيد ، فأنا أبعد منه » .

مـن النفحـــات العطـــرة

وبهذا الحديث الشريف يوضح لنا الرسول ﷺ ضرورة الصدق فيما ينقل عنه ، وأن الأحاديث التى لا تطمئن إليها العقول ولا القلوب إنما هى موضوعة لأغراض بعيدة عن دين الله . . كما يحذر من الكذب عليه بأحاديث مدسوسة لم يقلها ، وكان النبى إذا تكلم الكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم منه . .

وتحدث الرسول ﷺ فى كل النواحى التى تهم المسلم والمسلمة . . وتهم المجتمع الإسلامى ككل . .

قال لهم الرسول ﷺ يصف لهم الذين يظلهم الله بظله يوم القيامة . . يوم لا ظل إلا ظله . . قال لهم : «اسبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » . .

واشرأبت النفوس تريد أن تعرف هؤلاء الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله . .

وسمعوا قوله ﷺ : « إمام عادل ، وشاب نشأ فى طاعة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » . .

وسألوه عن الأعمال التى يحبها الله ورسوله فقال لهم :

« ألا أخبركم بأحبكم إلىّ ، وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة » ؟ . . وصمت الجميع وقال لهم آخر رسل الله ﷺ : « أحاسنكم أخلاقاً ، الموطئون أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون » . .

وقال لهم : « ألا أخبركم بأبغضكم إلىّ ، وأبعدكم من مجلساً يوم القيامة ؟ . . الثرثارون المتفقهون ، وكل غليظ جواظ متكبر (صاحب الغلظة والقسوة) » . .

*** *** ***

وكان خلقه القرآن

وقد علمهم الرسول ﷺ كيف يواجهون الصعاب بالصبر . . فما أكثر ما يواجه الإنسان فى حياته من هموم الحياة وأحزانها . . وعلاج هذه المشكلات هى الصبر والرضاء بقضاء الله ، وضرب النبى ﷺ الأمثلة على ذلك . .

فقد رزق النبى ﷺ بأبنه إبراهيم من مارية القبطية . . وقد أحبه النبى ﷺ حباً جماً . . فهو ولده الوحيد بعد أن مات أولاده الذكور من خديجة ، ولكن إبراهيم مرض مرض الموت ، وأخذه النبى ﷺ بين أحضانه وهو يعانى سكرات الموت . . وقبله كوالد ينطوى على حزن عميق . . ولكن ماذا يفعل أمام قدر الله . . إنه يقول وهو يحتضن بحنان فلذة كبده :

« إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئاً » . .

ويموت إبراهيم فيقول الرسول ﷺ دامع العينين :

« تدمع العينين ، ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضى الرب ، إنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون » . .

إن النبى العظيم يحترم المشاعر الإنسانية على ألا تطغى هذه المشاعر على كيان الإنسان . . إنه يقول لعبد الرحمنْ بن عوف عندما تعجب لحزن النبى ﷺ على ولده إبراهيم : « ما عن الحزن نهيت ، وإنما نهيت عن رفع الصوت بالبكاء . . وإن ما ترون بى أثر ما فى القلب من محبة ورحمة ، ومن لم يبد الرحمة لم يبد غيره الرحمة عليه » . .

وتصادف يوم أن مات إبراهيم أن حدث كسوف للشمس ، وظن الناس أن هذه معجزة . . وأن الشمس كسفت لموت إبراهيم ، ولكن الرسول العظيم يقول لهم : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة » . .

*** *** ***

فى خطبة الوداع

وفى السنة العاشرة للهجرة دعا النبى ﷺ المسلمين إلى الحج ، وتوافدت القبائل من كل مكان لمصاحبة النبى ﷺ فى الحج ، حيث حج النبى ﷺ مقرناً حجته بعمرة . . وهناك خطب خطبة الوداع الخالدة ، إذ ألقى على المسلمين وصاياه . . ومن هذه الوصايا الخالدة . . التى كانت بمثابة الدستور للمسلمين فى مختلف العصور . . ولقد سمع الصحابة هذه الخطبة فبكى بعضهم وخاصة عندما نزل قوله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ . .

فقد كانت هذه الآيات تنعى رسول الله ﷺ . .

وما دامت الرسالة قد اكتملت فمعنى هذا أنه لم يبق إلا الرحيل إلى أكرم جوار . .

وفى هذه الخطبة الرائعة الخالدة قال النبى العظيم فيما قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

ـ « أما بعد . . أيها الناس : فاسمعوا أبين لكم ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا . .

أيها الناس : أتدرون أى يوم هذا ؟ . .

قالوا : الله ورسوله أعلم !!

فقال ﷺ : أليس يوم الحج الأكبر . . ؟

قالوا : بلى . .

فقال ﷺ : أى شهر هذا ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم . .

قال : أليس ذا الحجة ؟

قالوا : بلى . .

قال : أى بلد هذا ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم . .

قال : أليست البلدة (يقصد مكة) . .

فقالوا : بلى . .

قال : فإن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، ألا هل بلغت اللهم فاشهد . . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها .

وفى هذه الخطبة حرم الربا وعادات الجاهلية ، فقال : « إن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أبدأ به هو ربا عمى العباس بن عبد المطلب . . وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث » . .

وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية . .

* * *

استوصوا بالنساء خيراً

وفى هذه الوصايا أوصى بحقوق المرأة وقال :

ـ « يا أيها الناس : إن لنسائكم حقا عليكم ، ولكم عليهن حق ألَّا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن (تحبسوهن) وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح .. فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف » ..

وقال عنهم أيضاً :

ـ « وإنما النساء عندكم عَوانٍ فى أيديكم ولا يملكن لأنفسهن شيئاً .. أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله .. فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا .. ألا هل بلغت اللهم فاشهد » ..

وأوصى فيما أوصى بضرورة التمسك بكتاب الله وسنة رسوله وقال :

ـ « فلا ترجعُنَّ بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله وسنة نبيه .. ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد » ..

وعندما أتم خطبته التى تتضمن وصاياه نزل قوله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ .

* * *

ورحيل المصطفى ﷺ

وتمضى أيام رسول الله ﷺ .. أيام من أعظم الأيام التى عرفتها الحياة .. ويشعر الرسول العظيم باقتراب الرحيل ، حتى أنه ودع معاذ بن جبل وهو فى طريقه إلى اليمن ، حيث أرسله النبى ﷺ وقال له : « يا معاذ إنك عسى ألا تلقانى بعد عامى هذا ولعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى » ..

ويمرض الرسول ﷺ مرض الموت ، ويأمر الصديق بأن يؤم الناس . وعندما حزن الناس لمرض الرسول ﷺ خرج إليهم فى مرضه، وجلس على أولى درجات المنبر وقال لهم بعد أن حمد الله وأثنى عليه : «بلغنى أنكم تخافون موت نبيكم . . هل خلد نبى قبلى فيمن بعث الله فأخلد فيكم . . ألا إنى لاحق بربى وإنكم لاحقون بى . . فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً . . وأوصى المهاجرين فيما بينهم ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ **والعصر * إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر** ﴾ » . .

وإن الأمور تجرى بأمر الله ، ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله . . فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد . . ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه ، فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض ، وتقطعوا أرحامكم . .

وفى هذه الخطبة أوصى بالأنصار خيراً وقال : « وأوصيكم بالأنصار خيراً ، فإنهم الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلكم ، أن تحسنوا إليهم . . ألم يشاطروكم فى الثمار . . ألم يوسعوا لكم فى الديار ، ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة . . ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين ، فليقبل من محسنهم ، وليتجاوز عن مسيئهم » . .

ألا ولا تستأثروا عليهم . . ألا وإنى فرط لكم وأنتم لاحقون بى . . إلا فإن موعدكم الحوض . . ألا من أحب أن يَرِدَه على غدا فليكفف يده ولسانه فيما نبغى » .

انطلق الرسول العظيم إلى جوار ربه الكريم بعد أن أقام مجتمعاً جديداً . . وحياة جديدة . . ورؤية جديدة للحياة . . وقامت على أساس مبادئه العظيمة حضارة الإيمان والعلم والتقى . . حضارة غزت القلوب والعقول ومدت أضواءها على مختلف أرجاء الدنيا . . وكانت هذه الدعوة بمثابة تغيير كامل لمسار التاريخ الذى مضى يسير نحو دروب جديدة . . وفكر جديد .

وجاء من بعده الخلفاء الراشدون . . حيث حققوا وجسّدوا ما جاء به الإسلام من قيم ومبادىء وشريعة . . وإذا بالدنيا كلها تتغير نظرتها للحياة ، وإذا بتاريخ جديد . . وجغرافية جديدة تطل على الوجود .

٢

الإسلام يثبت أقدامه

﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ ..

[قرآن كريم - « سورة المـائدة »]

□ ٢ □

الاســـلام يثــبت أقـدامــه

انتقل رسول الله ﷺ إلى جوار ربه بعد أن توحد العرب لأول مرة فى تاريخهم الطويل ، ودخل الناس فى دين الله عقب انتصارات الرسول فى غزواته المختلفة ، فتوافد على المدينة وفود مختلف القبائل فى شبه الجزيرة العربية ، ودخلوا فى دين الإسلام . .

وأصبح العرب بالإسلام أمة مهابة الجانب والسلطان . . لم تعد ترتعد خوفاً من الفرس . . ولا من الروم الذين سبق أن واجههم النبى ﷺ فى « مؤتة » وبعدها ذهب عليه الصلاة والسلام بنفسه لمجابهتهم فى « تبوك » غير أنهم آثروا السلامة ، وصالح « يوحنا » صاحب « أيلة » رسول الله على أن يدفع له الجزية . . كذلك فعل النبى مع بعض القرى بالقرب من تبوك . . وابتدأ الروم يستشعرون الخطر القادم من العرب . . كما بدأ الفرس يشعرون بأن تلك القبائل المتنافرة بعد أن أصبحوا دولة لها نظامها وشريعتها وقوانينها المستمدة من دينها الجديد ، خطر يهدد كيانها ، ولم يعد الروم والفرس ينظرون إلى العرب تلك النظرة غير المبالية التى كانوا ينظرون بها إليهم قبل الرسالة الخالدة . . لقد وحد الإسلام تلك القبائل ، ووفد إلى النبى فى المدينة فى السنة العاشرة من الهجرة حتى لقـائـه بالـرفيق الأعـلى قبائل العرب من شمال الجزيرة العربية وجنوبها . . وشرقها وغربها ووسطها . . وكان الرسول فى أيامه الأخيرة بعد أن فرغ من الغزوات والمناوشات يجلس فى مسجده يعلم الناس أمور دينهم ، فالتفت حوله العقول والقلوب وكان يعيد كلامه حتى يحفظه الناس . .

فقد روى الإمام البخارى عن أنس بن مالك قوله : إنه كان ﷺ إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم منه . .

وكان الرسول العظيم قد أحس بقرب الرحيل ، فأخذ يحذر من الفتنة ومن التقول عليه ، فقال : « إن كذبا علىَّ ليس ككذب على أحد . . من كذب علىَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . .

والتـف صحـابـة الـرسول حوله ينهلون من علمه ، ويعرفون من تعاليم دينهم ما خفى عنهم ، ويستفسرون عما يريدون الاستفسار عنه . .

وقـد حدث أن قدم إلى المدينة وفد بنى حنيفة ، وكان مع هذا الوفد مسيلمة بن حبيب « مسيلمة الكذاب » الذى ادعى النبوة فيما بعد . .

وكان مسيلمة يمنى نفسه بأن يكون له نصيب من المجد ، وقال لقومه قبل أن يلتقى برسول الله ﷺ : « إن جعل لى الأمر من بعده تبعته » . .

وجـاء أعـظم رسـل الله ، وكان فى يده قطعة من جريد النخل . . وسمع ما سمع من مسيلمة ، وأنه يطلب أن يكون له شـىء من بعده ، وقال الرسول الكريم : « إن سألتنى هذه القطعة من الخوص ما أعطيتكها ، وإنى أراك الذى أريته فى نومى ، ولن تعدو أمر الله فيك » . .

وقد أسلم بنو حنيفة ، بينما ظل مسيلمة على كذبه وادعائه ، وأراد أن يؤلب قومه على الدين الجديد ، طمعا أن يكون له جاه وسلطان ونفوذ . . ويشتهر بين القبائل العربية ، وتكون له مكانة كتلك المكانة التى يحتلها الرسول عليه الصلاة والسلام بين المسلمين فقال لقومه : « إن لى نصف الأرض ، ولمحمد نصف الأرض » . .

وأخذ يثير حماستهم بأن قوم محمد نصروه بينما تخاذل عنه قومه . .

واستـطاع بالفعل أن يثير حماستهم ، ويطلق فيهم روح الجاهلية وعنادها وغباءها ، فإذا ببعضهم يتعصب له ، ويقولون : « والله لكذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر » . .

وبلغ بالـرجل الحمق إلى مداه ، فأرسل رسالة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام مدعياً النبوة ، مع رجلين من قومه قال فيها : « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله . . سلام عليك ، فإنى قد أشركت فى الأمـر معك ، وإن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصفها ، ولكن قريشاً قوم يعتدون » . .

وسأل الرسول حاملى الكتاب عن رأيهما فى هذا النبى المزعوم . فقالا : نقول كما قال .

فقال عليه الصلاة والسلام : « أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما » . . وكان رد الرسول على هذا الدّعى :

﴿ بسـم الله الرحمـن الرحيـم ﴾

من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب . .

سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : « فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » . .

ومـــرت الأيـــام . .

وشعر النبى العظيم بقرب الرحيل ، فقد مرض ، وخطب الناس وهو فى مرضه يحثهم على مكارم الأخلاق ، وينصح لهم ، ويوصى بعضهم ببعض ، وأخذ يحذرهم من الفتن فقال لهم : « أيها الناس سعرت النار ، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم وإنى والله ما تمسكون على شيئاً ، إنى لم أحل لكم إلا ما أحل لكم القرآن ، ولم أحرم عليكم إلا ما حرم القرآن .. هل ترون ما أرى .. إنى لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر » ..

وفى اليوم الذى انتقل فيه إلى الرفيق الأعلى خرج إلى الناس وهم يصلون صلاة الصبح ، وقال لهم وكأنه يوصيهم وصيته الأخيرة : « إيتونى بكتاب أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده » .

فقال عمر بن الخطاب : « إن رسول الله ﷺ غلبه الوجع ، وعندنا كتاب الله وهو حسبنا » ..

وعندما اختلف الناس ، قال الرسول لهم : قوموا عنى ، ولا ينبغى عندى التنازع .. وانتقل الرسول العظيم إلى جوار ربه ..

وبدأت الفتن تطل برأسها ..

الأنصار يريدون أن تكون الخلافة فيهم ، والمهاجرون يريدون أن يكون الخليفة فيهم ، وأسرع الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح إلى سقيفة بنى ساعدة حيث اجتمع الأنصار لمبايعة سعد بن عبادة بالخلافة ..

ويحتدم نقاش طويل بين الصديق وابن الخطاب وابن الجراح وبين الأنصار ، ينتهى بمبايعة الناس الصديق ليكون خليفة لرسول الله ﷺ .. وبذلك استطاع المسلمون التغلب على أول فتنة ظهرت فى الإسلام .

ولكن سرعان ما تفاقمت الأمور .

فهناك من ارتد عن الإسلام عقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ..

وهناك من امتنع عن دفع الزكاة ..

وهناك من ادعى النبوة من أمثال مسيلمة الكذاب فى اليمامة ..

وبدا وكأن دولة الإسلام فى طريقها إلى التفكك ، وأن العرب سيعودون إلى سابق عهدهم .. قبائل متنافرة متناحرة ..

وبسرعة مذهلة تقدم الخليفة العظيم أبو بكر الصديق ليعيد الأمور إلى نصابها .. بقلب جسور ، وعقل صاف ، وقوة إيمان أقوى من رسوخ الجبال .. قرر أن يحارب فى كل الجبهات ..

غير مكترث بما أشار إليه عمر بن الخطاب بمهادنة مانعي الزكاة . . وقال له كلمته الخالدة : « أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام ، والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لحاربتهم عليه » . .

وكان قد حسم الأمور من قبل عندما جاء من داره في « السنح » وعلم بوفاة الرسول ﷺ ، فدخل عليه وقبله وقال له كلمته التي وعتها ذاكرة الأيام : « طبت حياً وميتاً يا رسول الله » . .

وخرج إلى المسجد ، وهناك من لا يصدق موت الرسول ، وكان فيهم عمر بن الخطاب نفسه الذي أذهلته المفاجأة . . ورفض أن يصدق أن محمداً قد مات ، ولم يفق الجميع من هول الصدمة إلا بعد أن سمعوا الصديق يخطب فيهم ويقول لهم : « أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » .

وتلا عليهم قوله تعالى : **﴿ وما محمد إلا سول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين ﴾** . .

وهذه الكلمات أعادت إلى النفوس الجزعة الهدوء ، وتقبل قضاء الله . . وهدأ ابن الخطاب وأطرق في حزن جليل . .

وكان على الصديق أن يعيد إلى الحكم شرعيته ، وأن يقضي على الفتن التي تهدد كل المكاسب التي حققها الإسلام ، وكان أهم الأحداث هم المرتدين عن الإسلام ومدعى النبوة كمسيلمة الكذاب في اليمامة ، وطليحة الذي يتبعه بنو أسد . .

ويروى الرواة أن أبا بكر حشد إحدى عشرة سرية . . تعمل كل واحدة من جهة في حرب الخارجين على الإسلام ، وأنه قام بنفسه على رأس جيش صغير تحت جنح الظلام ليهاجم بها بعض المرتدين عند ذي القصة ، فشتت شملهم وهرب من نجا مذعوراً . . ثم توجه إلى عبس وذبيان على بعد ثلاثين ميلاً إلى الشرق من المدينة وألحق بهم هزيمة مروعة . .

ثم أسند قيادة الجيش لخالد بن الوليد الذي استطاع أن يهزم طليحة وقومه من بني أسد ، ويفرق جموعهم في معركة (بزاخة) . . وهرب طليحة ، ويقول الرواة أنه ذهب إلى مكة واعتمر ، ومنها توجه إلى المدينة حيث أسلم أمام الصديق ، وكانت له بعد ذلك أدوار في خدمة الإسلام حيث شارك في حروب المسلمين ضد الروم في العراق ، وشارك في معركة « نهاوند » . .

كما استطاع خالد هزيمة بني يربوع الذين كان على رأسهم « مالك بن نويرة » . . وقتله خالد بن الوليد ، ثم واصل خالد تقدمه للقضاء على مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة ، والتف حوله بنو حنيفة ، وكانت هذه القبيلة بطناً من بطون بكر بن وائل التي تعيش على الرعي بين الدهناء وأدنى الفرات . .

وكـان يرفـع راية المهاجرين زيد بن الخطاب أخو عمر ، وكان يحمل راية الأنصار ثابت ابن قيس ، ودارت المعـركـة حامية ، وبلغت ذروتها فى الضراوة عندما تحصن أتباع مسيلمة فى حديقـة من النخيل محاطـة بسـور عظيم ، وقـد استطاع اثنان من أبطال المسلمين المشهود لهم بالشجاعة الخارقة تسلق السور ، وهما أبو دجانة الذى طالما صال وجال فى ميدان القتال فى معركة أحد بجوار رسول الله ﷺ ، غير أنه قتل بمجرد تمكنه من القفز وراء السور . . بينما استطاع زميله البراء بن مالك وهو أحد الأنصار الذين بايعوا النبى عليه الصلاة والسلام تحت الشجرة ، تسلق السـور وراء الأعـداء ، وفتـح باب الحـديقـة ليتيح للمسلمين دخول الحديقة ومواجهة أعداء الإسلام ، وما كاد يفتح باب الحديقة حتى اندفع المسلمون كالسيل الجارف ، ولم يجد بنو حنيفة أمام هول المعركة بدا من القتال اليائس حتى أبيدوا عن آخرهم . .

ويقـول الـرواة أن المسلمـين فقدوا عدداً كبيراً فى هذه المعركة التى أطلق عليها البعض « حديقة الموت » ، وقد اختلف الرواة فى عدد قتلى المسلمين . . فالبعض قال أن المسلمين فقدوا نحوا من ألف ومائتى شهيد ، وقال البعض الآخر مثل الإمام السيوطى أن عدد القتلى سبعون ، بينما قال الطبرى أن عدد القتلى من الفريقين بلغ عشرة آلاف . . !

ويقول الواقدى أن شهداء المسلمين بلغ عددهم ألفا ومائتين . .

وبكل المقاييس ، فقد كانت المعركة ضد مسيلمة الكذاب معركة شرسة للغاية وضحاياه بالقياس إلى حروب المسلمين السابقة كانت كبيرة . .

وفى هذه المعركة قتل مسيلمة الكذاب على يد وحشى الذى قتل حمزة بن عبد المطلب فى معركة أحد . . وكان وحشى قد أعلن إسلامه . .

ويقول الرواة أن وحشياً عندما تقدمت به السن ، كان يحمل نفس الرمح الذى قتل به سيد الشهداء حمزة ، وقتل به عدو الله مسيلمة ، وكان يقول للناس : « بهذا قتلت خير الناس . . وبهذا قتلت شر الناس » . .

وتقـدم خالد بعد معركة اليمامة إلى هجر عاصمة مسيلمة ، وبعد مفاوضات دخل أهل اليمامة الإسلام . .

وكان لكثرة قتلى المسلمين فى هذه المعركة ، وكان فيهم من يحفظ القرآن الكريم مما جعل الصديق يفكر بعمق فيما عرض عليه من آراء حول ضرورة جمع القرآن حتى يحفظ ، وأخيراً وافق على ذلـك . . وبانتصار اليمامة الساحق أذعنت القبائل وأعلنت دعوتها للإسلام . . واستطاع عكرمة بن أبى جهل إعادة بسط النفوذ الإسلامى فى عمان . .

ويقول الرواة أن حروب الردة استمرت سنة كاملة استطاع خلالها المسلمون إعادة إحكام

سيطرتهم على الجزيرة العربية ، وخضعت إلى حكم الصديق الذى قرر أن يحقق عالمية الإسلام ، والخروج به من شبه الجزيرة إلى الأقطار المجاورة ، وهذا يحتم عليه مجابهة أقوى إمبراطوريتين عرفهما التاريخ متمثلتين فى إمبراطورية فارس ، وإمبراطورية الروم ، وهذا ما قرر أن يقوم به بالفعل بعد انتهاء مأساة الردة . . وبتلك الفتوحات الإسلامية الكبرى تغير وجه التاريخ الإنسانى كله . .

ومن هنا يتداعى إلى الذهن ما قاله فريبان عن الفتوحات العربية : « سواء سميتموه نبياً أومصلحاً أو أى شيء آخر ، فإن راعى الإبل فى مكة وفاتح المدينة يفوق أى إنسان آخر عرفه تاريخ الشرق . . وليس ثمة فى تاريخ العالم رجل واحد يستطيع أن نعزو إليه مباشرة آثارا عظيمة كالآثار التى تعزى إلى هذا الرجل » . .

٣

الفتوحات الاسلامية

« أبرز العرب أنفسهم منذ أيام محمد ، على صعيد عالمى بفضل قوتهم العسكرية وتفوقهم العلمى . .

ولهذا لا يقل تفهم شئونهم ضرورة إن لم يزد عن تفهم أى شعب من الشعوب التى ازدهرت منذ أن سارت الإمبراطورية الرومانية .فى طريق الانحلال » . .

[سيمون أوكلى ـ تاريخ العرب]

□ ٣ □

الفتـــوحات الاســـلامية

ومضت أيام الرسول . .

أعظم أيام عرفتها البشرية فى كل تاريخها الطويل العريض . . ولكنه ترك لمن يأتى بعده كتاب الله وسنته . . دستوراً خالداً للمسلمين فى كل العصور .

واستـطاع أن يجمـع أبنـاء الجـزيرة العربية على دين واحد . . ويربطهم بعقيدة التوحيد الخالص . . وحولهم من قبائل متنافرة متناحرة إلى أمة واحدة .

و . . أصبحت الدولة الإسلامية الجديدة يهابها الأقوياء وعملوا لها ألف حساب . .

تيقن الروم لخطرها . .

وكذلك الفـــرس . .

وأصبحـوا يعدون العدة للقضاء على هذه القوة التى ظهرت فى شبه الجزيرة العربية . . وخاصة بعد أن وصلتهم رسائل من النبى عليه الصلاة والسلام . . رسائل إلى ملوكهم وحكامهم تدعوهم للدخول فى الدين الجديد . . وهذا يعنى أن هذا الدين لم يأت لأبناء شبه الجزيرة العربية ولكنه جاء إلى العالم كله . . وهنا يكمن الخطر فى رأى قياصرة الروم وأكاسرة الفرس . .

وكـان من الطبيعى أن تسير الأمور بعد رحيل النبى الكريم ﷺ إلى أكرم جوار بسهولة ويسر ، وخاصة أنه أناب الصديق عنه فى الصلاة أثناء مرضه . . ولكن الأمور أخذت تتعقد . .

حقق الصـديق انتصـاراتـه على المرتدين ومانعى الزكاة ، وحقق وحدة المسلمين فى شبه الجزيرة ، استعداداً لبدء الفتوحات الإسلامية الكبرى التى غيرت مسار التاريخ العالمى كله .

*** *** ***

المواجهة مع الفرس والروم

ورغم أن النبى ﷺ كان يعد العدة لمواجهة الروم ، وأعد جيشاً لذلك بقيادة أسامة ابن زيد، انتقاماً لشهداء معركة « مؤتة » التى قامت فى عهد الرسول ، وكانت أول مواجهة بين العرب والروم ، إلا أنه فى بداية الفتوحات العربية الكبرى التى كانت بدايتها الاصطدام مع القوى الكبرى ، كانت مع الفرس ، لأنه كانت هناك مناوشات بين قبيلة بنى بكر على شكل حرب عصابات وبين الفرس فى حوض الفرات الأدنى منذ بدأت الحروب تقع بين كسرى وبين أمراء اللخميين فى الحيرة منذ عام ٦٠٥ م . .

ولقد كان لبعض الانتصارات العربية على الفرس دافع للمثنى بن حارثة الشيبانى أن يقوم بمهاجمة الفرس . . وحقق بعض الإنتصارات مما دعاه أن يرسل للخليفة (أبى بكر الصديق) أن يساعده فى مهاجمة الفرس ، ونشر لواء الإسلام فى ربوع العراق . . كما أعطى أوامره للتقدم لمواجهة الروم . . وتوالت الانتصارات فى كلتا الجبهتين . .

ونحن هنا لسنا بصدد الوقوف عند المعارك العسكرية . . استعراضها والحديث عنها . . فهذه هى مهمة المؤرخين . . ولكننا نتوقف عند النتائج ، فقد أعطانا التاريخ صورة لنتائج المعارك الفاصلة التى حدثت وغيرت مسار الحياة فى قارات الدنيا المعروفة . .

لقد بدأت فى عهد الصديق المواجهة بين العرب والفرس ، وبين العرب والروم . . وانتهت بسقوط الدولة الفارسية ، ودخول القوات الإسلامية عاصمة الفرس بقيادة سعد بن أبى وقاص فى خلافة عمر بن الخطاب ، كذلك اجتاحت القوات الإسلامية الشام بقيادة خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وأبى عبيدة بن الجراح بعد ذلك ، ثم اجتياحهم للقوات الرومانية فى مصر بقيادة عمرو بن العاص ، والتطلع لاجتياح الشمال الإفريقى ونشر أنوار الإسلام فى كل هذه الأماكن التى لم تكن تخطر على البال . .

*** *** ***

سر الانطلاقة الكبرى

وهنا يبرز تساؤل : ما سر هذه الانطلاقة الهائلة للمسلمين ؟

كيف استطاعوا القضاء على دولة الفرس ؟ وعلى اقتطاع الشام ومصر من الإمبراطورية الرومانية ؟

وهل كان التوسع الإسلامى بقوة السلاح كما ادعى بعض المستشرقين ؟

وهل كانت الانتصارات الإسلامية الرائعة فى أيام حكم الصديق والفاروق لأن كلًّا من دولتى الفرس والروم كانتا قد أنهكتهما الحروب الطويلة التى دامت بينهما فترة طويلة ؟

هذه الأسئلة كانت هى محور الدراسات الطويلة والمطولة لعشرات المؤرخين فى الغرب والشرق على السواء . . وكانت نتيجة الإجابة عليها عشرات من المجلدات . .

بعضها واضح فيه الدوافع غير الموضوعية ، وبعضها الآخر اقترب من الحقيقة ، بينما حاول البعض الآخر أن يخفى عدم موضوعيته . . ولكن الحقيقة لا تغيب . . فقد استطاع أتباع النبى عليه الصلاة والسلام أن يغيروا مسار التاريخ الإنسانى كله ، واستطاعوا أن ينشروا الإسلام فيما بين الصين حتى الأندلس فى سنوات قليلة جداً ، لا لشىء إلا أن هذا الدين له من المقومات ما جعله يغزو القلوب والعقول عن طريق الإقناع لا عن طريق السيف ، لأن هذا الدين ببساطة قد فرض على أتباعه بنص القرآن . . أنه : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾ . .

*** *** ***

عندما تحدث الخليفة

من الضرورى معرفة أن الإسلام انتشر لقيمه ومبادئه ، ولأن القائمين فى الحكم عند بداية الفتوحات الكبرى كانوا تجسيداً للإسلام . . فهذا أبوبكر الصديق يخطب الناس عندما تولى الحكم موضحاً فى هذه الخطبة سياسته التى سوف يقوم عليها نظام الحكم . . بكلمات بسيطة جداً . . سهلة جداً . . قليلة جداً . . ولكنها منهاج حياة للحكم كله :

« أيها الناس : قد وليت عليكم ولست بخير منكم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن صدقت فقومونى . . الصدق أمانة ، والكذب خيانة . . والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . .

لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل . . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم . . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » . .

هذه هى الخطبة الأولى لخليفة رسول لله . . منتهى الديمقراطية والعدل . . فإن بقاءه فى الحكم مرتهن بطاعته لله . . وإن مهمته هى إعطاء كل ذى حق حقه . . الغنى لا يجور على الفقير . . القوى لا يهيمن على الضعيف . . ومهمته كحاكم أن ينال كل ذى حق حقه ، وأن يكون مقياس العدل هو شريعة الله . . ولا يقعد أحد عن الجهاد فى سبيل الله . .

بهذا المنهج السليم فى الحكم . . انطلقت الفتوحات الإسلامية الكبرى لتغير معالم الدنيا كلها ، وتنشر دين الله بلا قهر . .

فماذا كانت النتيجة . . ؟

*** *** ***

الفتوحـــات بعيـــون الآخريـــن

لندع أحدهم ـ من غير المسلمين ـ يدلى برأيه فى هذه الفتوحات الإسلامية ونتائجها . . وهل غيرت فى شخصية الحاكم ؟

يقول جون باجوت جلوب فى كتابه : (الفتوحات العربية الكبرى) ـ وجلوب كان قائداً للجيش الأردنى قبل أن يطرده الملك حسين ـ يقول جلوب فى كتابه هذا ـ رغم أن الكتاب مملوء بالمغالطات التاريخية ـ وهو يتحدث عن شخصية الصديق :

« ولقد قيل أن حياة أبى بكر وسلوكه كانا من أقوى الأدلة على صدق دعوة النبى وإخلاصه ، فلقد كان أبوبكر من أوائل الصحابة ، وكان رفيق النبى فى هجرته من مكة وأقرب الصحابة إلى قلبه ، ولقد كان الخليفة الأول رجلاً بسيط الشخصية عميق الإيمان والإخلاص ، وقد سار على سنة النبى . . ولم تؤثر على سبيله فى الحياة الانتصارات العظيمة التى تحققت فى عهده ولا الثروات الطائلة التى تدفقت على المسلمين من جراء الانتصارات » . .

لقد ظل يعيش فى بيت بسيط قريب إلى ما نسميه نحن بالكوخ . . بنى من الطين المجفف واللبن ، وتغطى سقفه بغصون الأشجار . . وقد ظل رغم أنه الحاكم فى إمبراطورية آخذة فى الاتساع السريع يرتدى ملابس بسيطة قوامها قميص من القطن وعباءة خشنة هى عين ما كان يرتديه قبل خمسة عشر عاماً عندما كان مواطناً عادياً فى مكة ، وكان يواصل حلب الشاة لأسرته الصغيرة حتى عندما كانت جيوشه تجتاح فيالق القياصرة وجيوش الأكاسرة . .

ولقد ظلت الأنظمة المالية للإمبراطورية الجديدة فى عهده هى البساطة بعينها ، فلقد كان خمس الغنائم يصل إلى المدينة من جبهة القتال حيث يقوم الخليفة بتوزيعه فور وصوله . . وكان يلجأ فى بعض الأحايين إلى ابتياع السلاح والخيل والدروع من بعض هذا الفىء ، أما ما يتبقى فيوزعه على المحتاجين من المسلمين ، ولم تكن هناك حسابات منظمة ، أما ما يصيب بيت المال من فراغ فيعالج فوراً بما يصل إليه من غنائم جديدة حققتها الإنتصارات الباهرة . .

ولقد جرت سنة رسول الله ﷺ على عدم الاحتفاظ بشىء من متاع الدنيا لاستعماله الخاص . . وعلى الرغم من تدفق مبالغ كبيرة من المال إلى يديه على شكل الفىء أوخمس الغنائم فإن هذا الفىء كان يوزع على الفقراء والمحتاجين وأرامل الشهداء . . ولقد سار أبوبكر فى كل هذه الأمور كما فى غيرها على سنة الرسول ﷺ مطبقاً إياها بجميع حذافيرها وتفاصيلها . .

*** *** ***

وجـــاء الفـــاروق عمـــــر

ولا شك أن الانتصارات الإسلامية بلغت ذروتها فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حيث تم القضاء على دولة الفرس ، بعد معارك طاحنة فى القادسية ، وسقطت الشام وفلسطين بعد معارك هائلة فى « اليرموك » و « أجنادين » وغيرهما من المعارك الفاصلة ، كما تم الاستيلاء على مصر . . التى ساعد أهلها المسلمين لما لاقوه من طغيان الروم وتعنتهم . . و . . تدفقت الأموال على خزينة الدولة الجديدة . . وساس عمر الدولة بكل اقتدار رجل الدولة الممتاز . . فأصبح للناس حقهم فى بيت مال المسلمين أو على حد تعبير الدكتور طه حسين فى كتابه : « الشيخان » :

« وقد ابتكر عمر لوناً من النظام الاجتماعى قوامه تأمين الناس على حياتهم من بيت المال ، وكان يؤمن إيماناً قوياً بأنه لا يعطى الناس هذه الأعطيات . . تبرعاً منه لهم ، أوتفضلاً منه عليهم ، وإنما كان يرى أن لهم حقاً من كل ما يجيىء إلى بيت المال ، سواء أقل هذا الحق أم كثر ، وكان يقول : والذى نفسي بيده ما من واحد من المسلمين إلا وله فى هذا المال حقه أعطيه أومنعه » . .

وكان يقول كذلك : « والله لئن عشت ليأتين الراعى حقه من هذا المال قبل أن يحمر وجهه فى طلبه» . . يريد أنه كان حريصاً على أن يصل العطاء إلى أصحابه من قرب منهم ومن بعد دون أن يسعوا إليه ليطلبوه ، فضلاً عن أن يتكلفوا الجهد فى هذا السعى . .

ويبرر الدكتور طه حسين التفاوت فى الأعطيات ، وأن ذلك لا يرجع إلى إيمانه بنظام الطبقات فهذا مخالف لروح الإسلام ، لأنه لافرق بين الناس إلابالتقوى، ولكن على حد تعبيره : « وما كان لعمر أن يسوى فى العطاء بين من قاتل على الإسلام ناشراً له ومدافعاً عنه ، ومن أقام هادئاً فى عافية لا يقاتل ، ولا يتعرض للخطر ، وما كان له أن يسوى بين من عاشر النبى ﷺ ، وأبلى بلاء حسناً معه فى سبيل الله ، ومن لم يلق النبى وإنما أسلم بأخرة ، أوأسلم بعد وفاة

النبى . . وما كان له ـ كذلك ـ أن يسوى بين الذين أقاموا على إسلامهم لم يخالفوا عنه ولم يخرجوا منه ، والذين أسلموا ثم كفروا ثم عادوا إلى الإسلام بقوة السيف والسنان » . .

*** *** ***

سقـــوط عـــرش الفـــرس

يصور لنا الدكتور طه حسين الفتوحات الإسلامية الكبرى التى تمت فى عهد عمر . . وهموم الخليفة العظيم . . وهو يسوس أمور هذه الإمبراطورية الجديدة بالعدل والذكاء بقوله : « وكذلك فتحت على عمر بلاد كسرى كلها فى هذه المدة القصيرة التى تولى فيها أمور المسلمين عشر سنين وأشهرا » . .

ومازال يزد جرد (كسرى الفرس) مشرداً حتى قتل فى أيام عثمان ـ رحمه الله ـ قتله رجل من مواطنيه . .

ولم يكتف المسلمون بما فتح الله عليهم فى المغرب من الشام وفلسطين ومصر وبرقة ، وما فتح الله عليهم فى المشرق من أرض كسرى، ولكن الظروف اضطرتهم إلى أن يؤمنوا الشام بفتح الجزيرة فافتتحوها ، ولم يبق بينهم وبين الروم إلا هذه الحدود التى اعتصم الروم من ورائها ، حتى افتتحها المسلمون فى أيام معاوية محاولين فتح القسطنطينية . . ولكن لهذه المحاولة موضع آخر فى هذا الحديث . .

وقد يخيل إلى من يتصور ما أتيح للمسلمين من الفتوح أيام عمر والانتصار المؤزر على الفرس والروم جميعاً ، أن عمر كان سعيداً بهذه الفتوح العظيمة ، وبما كان يتدفق عليه فى المدينة من المال الذى كان المسلمون يخمِّسون له من الغنائم ويرسلونه إليه من الفىء ، ولكن الشىء المحقق أن عمر لم يهنأ قط بهذه الفتوح ، ولا بما أفاء الله عليه من الأموال التى لا يكاد التصور يحيط بكثرتها . . كان يسره انتصار المسلمين ويرضيه ، وكان يسره أن ينتشر نور الله فى الأرض وتعلو كلمة الإسلام ، وكان يسره ويرضيه كذلك أن يسعد المسلمون بما كان الله يفىء عليهم من المال الذى أخرجهم من ضيق العيش إلى السعة ، وأتاح لهم الرخاء بعد ما كانوا فيه من الشظف وقسوة الحياة . . ولكن عمر على ذلك كان أبأس الناس بالفتوح والمال . .

*** *** ***

هـــذا انتشـــر الإســـــلام

إذاً لم يكن هدف المسلمين من الفتوحات الكبرى التى قاموا بها سوى نشر الإسلام . . ونشر قيمه وتعاليمه ومبادئه ليعيش الناس فى ظلاله وكلهم إحساس بالعدل والأمن والأمان . .

ولو فرض الإسلام بالقهر لقامت ثورات عنيفة ضده عندما ضعف حكامه . .

ولكن الـذى حدث أن الـذين اعتنفوه اعتنقوه بإيمان عميق . . ورأوا فيه راحة لنفوسهم المتعطشة للراحة والأمن والأمان . .

رأى الناس فى الدين الجديد أملهم فى حياة يسود فيها العدل لأن الحكم شورى . . والأمان لأنـه لا تمايز طبقياً فى ظل الإسـلام . . والتكافل الاجتماعى لأن لكل حسب عمله وإنتاجه ، وما يفيض من مال فيثاب المسلم على إنفاقه فى مشاريع الخير والضعفاء والمساكين . .

والزكاة تطهير للأموال ، فيها الأمان للمحتاجين إليها . .

وفى العبادات ما يقربهم إلى الله . . فينالون خير الدنيا وخير الأخرة . .

ومن هنـا اعتنقت الشعوب بعد هزيمة ملوكهم من الأكاسرة والقياصرة الدين الجديد ، وذابت حضارتهم فى الحضارة الجديدة لينطلق الإسلام بعد ذلك باندفاع قوى جارف ، ليصل المد إلى أقصى مداه فى عصر عثمان رضى الله عنه ، حيث تكون أول أسطول إسلامى استطاع أن يقهر الأسطول الرومانى ويهزمه فى معركة « ذات الصوارى » الشهيرة . . و . . يواصل الإسلام زحفه الكاسح بعد ذلك فى الشمال الأفريقى ، وفى آسيا بصورة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً . .

٤

بين الإقدام والتوقف

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى ، فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ﴾ . .

[قرآن كريم]

□ ٤ □

بين الاقدام والتوقف

وجاء عصر عثمان بن عفان رضى الله عنه :

كانت الفتوحات الإسلامية فى عهد الفاروق عمر بن الخطاب قد حققت انتصارات هائلة على الفرس والروم . . وهذه الانتصارات غيرت موازين القوى فى العالم ، وفى نفس الوقت غيرت صورة الحياة فى الدولة الإسلامية التى ولدت عملاقة . . فالأموال أخذت تتدفق على بيت المال ، والغنائم التى نتجت عن هذه الحروب غيرت الأوضاع الاجتماعية ، ورفض عمر الخليفة العظيم أن يستغل الفاتحون الأرض ويتقاعسوا عن الجهاد ، فظلت الأرض فى يد أصحابها من أهالى البلاد . . فهم أدرى بشؤنها من غيرهم ، ونظم أمور الدولة على أسس تدل على عبقرية فطرية بالغة الذكاء فى إدارة شئون الحكم . .

فإمبراطورية فارس سقطت تحت سنابك خيول المجاهدين العظام . . وترنحت دولة الروم التى كان يمتد سلطانها على معظم أرجاء العالم . . فإذا بها تتقلص بعد سلسلة الهزائم التى منيت بها فى الشام وفلسطين ومصر . . و . . أصبحت عيون المسلمين تتطلع إلى الشمال الإفريقى كله حتى بحر الظلمات (المحيط الأطلنطى) . . وإلى الشرق حتى أسوار الصين . .

واستشهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى أوج الانتصارات العربية ، وقبيل اللحاق بالرفيق الأعلى أمر أن يختار الخليفة الجديد من بين ستة من صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن بينهم ابنه عبد الله على أن يكون مجرد صوت فى اختيار الخليفة الجديد ، ولا يُختار هو خليفة . . ووقع الاختيار على « عثمان بن عفان » رضى الله عنه . .

وقد لخص « جلال الدين السيوطى » فى كتابه (تاريخ الخلفاء) الخطوط الرئيسية لحكم « عثمان » رضى الله عنه بقوله : « هو أول من أقطع القطائع ، وأول من حمى الحمى ، وأول من خفض صوته بالتكبير ، وأول من أمر بالأذان الأول فى الجمعة ، وأول من رزق المؤذنين ، وأول من أرتج عليه فى الخطبة ، وأول من قدم الخطبة فى العيد على الصلاة ، وأول من فوض إلى الناس

إخراج زكاتهم ، وأول من ولى الخلافة فى حياة أمه ، وأول من اتخذ صاحب شرطة ، وأول من اتخذ المقصورة فى المسجد خوفاً من أن يصيبه ما أصاب عمر ، وأول من وقع فى عهده الإختلاف بين الأمة فخطّأ بعضهم بعضاً فى زمانه فى أشياء نقموها عليه . . وأول من هاجر إلى الله بأهله . . وأول من جمع الناس على حرف واحد فى القراءة . . وأول منكر ظهر فى المدينة فى عهده ، حين فاضت الدنيا ، وانتهى سمن الناس » . .

العــــودة إلى الفتوحــــات

وما كادت تصل أنباء استشهاد « عمر » حتى ظنت الفرس والروم ، أن الفرصة قد واتتهما للتخلص من السيطرة الإسلامية ، فقامت قلاقل واضطرابات فى بلاد الفرس ، وهاجم الأسطول الرومانى الإسكندرية واستعادها من جديد لتخضع للسيطرة الرومانية ، وساعد الروم على ذلك وجود أسطول رومانى قوى له السيادة على البحر المتوسط كله . .

وأمام هذه المتغيرات الجديدة ظهر عثمان بن عفان رضى الله عنه . . إنه لم يكتف بتكليف عمرو بن العاص باسترداد الإسكندرية ، وهو الذى كان قد عزله فى أول الأمر وولى بدله أخاه فى الرضاع « عبد الله بن أبى سرح » . . بل إنه أعطى الإذن بعد القضاء على الرومان فى الإسكندرية ، واسترداد المدينة منهم ، أن يتوغل المسلمون فى داخل القارة الإفريقية على طول الساحل الشمالى . .

وفى نفس الوقت كلف المجاهدين بالقضاء على المتمردين فى بلاد فارس وفتح بلاد جديدة من المتاخمة للفرس ، وإذا بالجيوش الإسلامية تحقق الانتصارات تلو الانتصارات ، ويثبت المسلمون أقدامهم نهائياً فى كل الإمبراطورية الفارسية ، ويتوغلون لضم أراض جديدة حتى تنتشر حضارة الإسلام فى كل مكان ، وتم لهم فتح أرمينية . .

ويتقدم جيش عبد الله بن أبى السرح والى مصر فى الشمال الإفريقى بعد أن أمده الخليفة بعتاد بقيادة « عبد الله بن الزبير » الذى استطاع أن يهزم القائد الرومانى « جريجورى » ، وواصل زحفه حتى (سيطلة) ثم واصلوا زحفهم لفتح بقية إفريقية (تونس) . .

ويقول الرواة أنه صالح أهلها على ثلثمائة قنطار ذهباً . .

* * *

المشـــاكـل الخــــارجـة

والسؤال الذى يثار هنا :

- كيف كانت تساس أمور الدولة فى عهد عثمان فى ظل الفتوحات الإسلامية الهائلة ؟ . .

يجيب عن هذا السؤال المهم الأستاذ العقاد بقوله : « إن علاج عثمان لمشكلات الدولة (الخارجية) التى فاجأته بعد ولايته قد كان كأحسن علاج يتولاه خليفة فى تلك الآونة : عزم وسداد وسرعة . . مع الحيطة والأناة والرفق فى سياسة الأولياء والخصوم » . .

ولا شك أن الخليفة كان معاناً على عمله ولم يكن منفرداً بعبئه فى تلك المحنة الجانحة : كان معانا عليه بحمية الجند وكفاية القادة ، وكانت حمية الدين التى حفزت دعاة الإسلام من نصر إلى نصر ومن عزمة إلى عزمة وصحبتهم من بدر . . إلى القادسية . . وتبوك . . وبابلبون ، صامدة على سمعتها كأقوى وأقدم ما كانت فى يوم من أيامها ، بل لعلها فى حروب الفرس والروم كانت أقوى وأقدم من حروبها فى الجزيرة العربية . . إذ كانت أنفة العربى أن ينهزم أمام المتعجرفين عليه من الأعاجم كفيلة أن تنفث فى قلبه الغضبة القوية التى لا تثيرها حرب العربى للعربى والشبيه بالشبيه . .

ويقول الأستاذ العقاد فى موضع آخر من كتابه (ذو النورين عثمان بن عفان) :

« لم يقنع عثمان بتسكين الثورات حيث يكفى فيها التسكين ، أو قمعها حيث تحتاج إلى القمع فى بلاد الطغاة والمتجبرين ، فصالح من صالح . . وحارب من حارب . . ثم أمر قواده بمجاوزة البلاد التى نشبت فيها الثورات إلى ما وراءها منعاً لارتداد الهاربين إليها . . وانبعاث الفتن والدسائس من قبلها ، فتقدمت جنوده شرقاً إلى حدود الهند والصين ، وشمالاً إلى ما وراء بحر الخزر ، وغرباً إلى أبواب القسطنطينية وجوانب الحبشة ، ولم يؤخذ عليه قط وَنَاءٌ فى إنقاذ نجدة أو تيسير مدد أو تدارك خطر فى أوانه من أقصى تلك البلاد إلى أقصاها » . .

* * *

الأسطـــول الإســـلامى

والدارس للتاريخ الإسلامى ، وفتوحات الإسلام ، سوف يعرف أن العرب كانوا أصحاب خبرة قتالية عالية ، يقويها الدافع الدينى . . كانت قدرتهم القتالية هائلة للغاية فى الصحراء ، وكانت عبقريتهم تكمن فى استدراج أعدائهم من الحصون لمحاربتهم فى العراء ، فإذا أعيتهم

الحيلة عندما يتمسك الأعداء بالتحصن داخل حصونهم ، كانوا يحاصرون هذه الحصون حتى يضطر الأعداء إلى الاستسلام أو الخروج مضطرين لمحاربتهم ، وإذا طال الحصار تلمسوا نقطة ضعف للدخول إلى الأعداء فى عقر حصونهم . .

ولكن الذى كان ينقصهم بالفعل هو عدم وجود أسطول بحرى لديهم . . فقد عاشوا وسط الصحراء . . ولم يعرفوا البحر ، وبالتالى لم يعرفوا فى تاريخهم الحروب البحرية . .

وعندما احتكوا بالرومان ، وجدوا أنهم يتفوقون عليهم فى هذا المجال . . فلدى الرومان أسطول بحرى ضخم ، استطاعوا به أن يفرضوا سيادتهم على البحر الأبيض المتوسط وجزره . . وقد استطاعوا أن يستردوا الإسكندرية بعض الوقت بسبب تفوقهم البحرى ، بجانب تهديدهم للشواطىء العربية فى الشام ، والشمال الإفريقى بسبب الإمدادات البحرية . .

ولقد حاول العرب بناء أسطول بحرى ليجابه القوة البحرية الرومانية أيام عمر بن الخطاب ، وقد رفض عمر هذا الاقتراح الذى تقدم به والى سوريا معاوية بن أبى سفيان ، لعلمه أن العرب ليس لديهم خبرة فى الحروب البحرية من جهة ، ومن خوفه من جهة أخرى على جنوده أن يركبوا البحر ، وليس عندهم أدنى خبرة بركوب البحر ، وخاصة عندما سأل عمرو بن العاص أن يصف له البحر . . والذين يركبونه ، فأرسل إليه عمرو بن العاص ما أخافه أن يزج بجنوده فى متاهات لا يعرفونها . . كتب إليه ابن العاص يصف له عالم البحار يقول :

« إنى رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء . . إن ركد خرق القلوب . . وإن تحرك أزاغ العقول . . يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، هم فيه دود على عود . . إن مال غرق وإن نجا برق » . .

قرأ أمير المؤمنين رأى عمرو بن العاص ، فإذا به يرسل إلى معاوية وقد أيقن مخاطر البحر يقول له : « لا والذى بعث محمداً بالحق ، لا أحمل فيه مسلماً أبداً » . .

ولقد شعر معاوية بعد أن تولى عثمان الخلافة بأهمية الأسطول . . فأرسل إلى الخليفة يطالبه مرة أخرى بالإذن له ببناء إسطول إسلامى . .

وفى الوقت نفسه تقريباً كان والى مصر « عبد الله بن أبى سرح » قد أيقن تماماً وخاصة بعد تهديدات الروم المستمرة للشواطىء المصرية بضرورة إقامة أسطول بحرى حتى يرد عن مصر والشمال الإفريقى أخطار الروم . .

ووافق الخليفة عثمان بن عفان على ما طلبه معاوية ، وعبد الله بن أبى سرح . .

ولقد سعد معاوية بن أبى سفيان بهذا القرار ، فقد كان يريد فتح قبرص لأهميتها ، ولأنها

قاعدة للانطلاق العسكرى الرومانى إلى شواطىء الشام . . وعلى الفور شرع فى بناء أول أسطول بحرى إسلامى . . وكذلك فعل والى مصر « عبد الله بن أبى سرج » . .

وأرسل معاوية إلى عثمان يستأذنه فى فتح قبرص ، وقال له فيما قال ، إن قبرص قريبة جداً من الساحل السورى ، وإنه من الممكن لسكان السواحل السورية سماع نباح الكلاب فى جزيرة قبرص . . !

وفى عام ٦٤٩ م انضم الأسطول المصرى إلى الأسطول السورى وكان بحارته من المصريين . . وكانت مهمة البحارة القيام بقيادة السفن ، بينما أمور الحرب تترك للعرب . .

وبهذا الأسطول تمكن المسلمون من السيطرة على قبرص ، وطلب حاكمها الرومانى التسليم بلا قتال ، وأنه موافق على دفع الجزية للمسلمين وألا تكون بلاده قاعدة لإطلاق البحرية الرومانية لمهاجمة الشواطىء الإسلامية . . وتم عقد معاهدة بمقتضاها يدفع الحاكم الرومانى للمسلمين جزية سنوية قدرها (٧٢٠٠ دينار) أى نفس المبلغ الذى كانوا يدفعونه للرومان ، كما نص الاتفاق أيضاً أن يدفع أهل قبرص الجزية التى كانوا يدفعونها إلى الروم اتقاء لشرورهم . . على أن تكون الجزيرة محايدة . . لا مع الروم ولا مع العرب . . وكانت هذه هى رغبة حاكم جزيرة قبرص ! . .

وقد وافق المسلمون على هذه المعاهدة على أساس أنهم (حيَّدوا) قبرص من جهة ، ومن جهة أخرى يكون لهم عيون فى الجزيرة يعرفون بها تحركات الرومان . . أى هناك من يقوم بدور (المخابرات) بلغة هذا العصر حتى لا يفاجأ المسلمون بهجوم غادر من الروم . .

*** *** ***

ذات الصـــــوارى

وتمضى الأيام . . وتأتى الأنباء إلى والى مصر بأن الأسطول البحرى الرومانىّ سوف يقوم بغزو الإسكندرية مرة أخرى . . ولكن الأمر كان مختلفاً تماماً عن المرات السابقة . . فقد أعد الرجل للأمر عدته ، ولم يعد الأسطول الرومانى سيد البحار . . بل سوف يقابل هذه المرة بقوة بحرية . . ويأتى الأسطول إلى الإسكندرية ليفاجأ بمقاومة رهيبة من الأسطول الإسلامى . . وبعد معركة رهيبة حرص فيها المسلمون على الموت لتوهب لهم الحياة . . لم يجد الرومان مفراً من الهروب نحو الشمال . .

ورأى معاوية بن أبى سفيان أن حاكم قبرص الرومانى قد تواطأ مع الرومان ، وأنهم لم يحافظوا على المعاهدة ، وقرر مهاجمة قبرص والاستيلاء عليها نهائياً ليقطع على الروم خط الرجعة ، ويقضى على أطماعهم البحرية إلى الأبد . . فقرر غزو قبرص عام (٦٥٣ م) . . واستطاع احتلالها وترك قوة فيها قوامها ١٢ ألف مقاتل . .

اغتاظ الروم ، ولم يقدروا الأمور حق قدرها . . فقد ظنوا أنهم يمكنهم القضاء على الأسطول الإسلامى ـ الوليد ـ فقامت معركة بحرية هائلة . . حارب فيها المسلمون بكل ما ملكوا من طاقة الإيمان وقد تيقنوا أنه لا بديل فى هذه المعركة عن النصر أو الشهادة . . وقد شهد هذه المعركة التى دارت بالقرب من (اليقيا) . . الإمبراطور الرومانى نفسه . .

و . . منى الأسطول الرومانى بهزيمة منكرة ، وتحققت السيادة الإسلامية على البحر الأبيض المتوسط بعد هذه المعركة التى سميت « ذات الصوارى » لكثرة السفن المشتركة فى القتال من كلا الجانبين . .

وهكذا تم فى عهد عثمان فتوحات إسلامية هائلة . . وعاش الناس فى ظل خلافته فى السنوات الأولى منها والكل يشعر بالأمن والأمان والرخاء ، فالخليفة ليست فيه شدة عمر . . والانتصارات تتوالى ، ومعها يزداد دخل بيت المال الذى ينعكس بالتالى على المسلمين . .

* * *

بداية الفتنة الكبرى

ولكن بدأت الحياة الداخلية تأخذ شكلاً خطيراً عندما ولىّ الخليفة أقاربه من بنى أمية فى المناصب الحساسة ، ولم يستمع إلى الاعتراضات التى وجهها الناس ضدهم . . وحتى لم يستمع إلى على بن أبى طالب نفسه فى هذا الأمر . .

ولقد تجمعت روافد كثيرة أدت إلى الفتنة الكبرى . . وكان عثمان قد تجاوز الثمانين من عمره ، وهموم الحكم كثيرة . . ولولا هذه الفتنة لتغير مسار التاريخ تغيرا كبيراً ، ولأسرعت الفتوحات أكثر وأكثر . . ولكن الفتنة أطلت برأسها . . ولم يستطع عثمان ـ رضى الله عنه ـ حسم الأمور ، فازداد لهيب الفتنة ، وتدفقت على المدينة وفود من مصر والكوفة والبصرة مطالبة بالإصلاح وإقصاء الولاة الذين يظلمون الناس . .

وكان عثمان حريصاً على إرضاء الناس فى أول الأمر ، فقد خطب فى وفد العراق ، وقال مما قال : « أنا أول من اتعظ . . أستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه . . فمثلى نزع وتاب . . فإذا نزلت فليأتنى أشرافكم فليروا فىّ رأيهم ، فوالله لئن ردنى الحق عبداً لأستن بسنة العبد ولأذلن ذل العبد ، وما عن الله مذهب إلا إليه ، فوالله لأعطينكم الرضا ، ولأنحنيه (مروان) ولا أحتجب عنكم » . .

وبكى عثمان ، وتذكر المسلمون مواقفه وتاريخه مع رسول الله ﷺ ، وتبرعاته بماله فى سبيل الله ، وحب الرسول له . . وزواجه من ابنتى خاتم النبيين . . فبكوا . .

ولكن ما وعدهم به لم يتحقق ، ولم يخلع مروان بن الحكم الذى كان يستشيره فى الأمور . . وزادت المشكلة تعقيداً والفتنة اشتعالاً . . حتى أن معاوية طلب منه أن يبعث بجيش من الشام يحميه فرفض ، فطلب منه الذهاب معه إلى الشام ، فرفض أيضاً . . ويدور حوار بينه وبين معاوية ، نرى من خلاله عمق الإيمان فى نفسه . . ولكن الشيخوخة أكسبته نوعاً من التردد . . فلم تحل مشكلة الفتنة ، ولم يستطع أن يرضى الناس . .

يقول له معاوية فيما قال من مقترحات للخروج من الأزمة : « أرتب لك أربعة آلاف من جند أهل الشام يكونون لك ردءا وبين يديك يدا » . .

وتساءل عثمان :

ـ من أين أرزقهم ؟

ـ من بيت المال . .

ـ أأرزق أربعة آلاف من الجند من بيت مال المسلمين لحرز دمى ؟ لا فعلت هذا . .

وقتل عثمان مظلوماً . . أو على حد تعبير « جلال الدين السيوطى » : « قتل عثمان مظلوماً . . ومن قتله كان ظالماً . . ومن خذله كان معذوراً » . .

انتهت حياة عثمان رضى الله عنه .

وبويع على بالخلافة . .

وبدأ الصراع الرهيب بين بنى هاشم وبنى أمية « حينما رفض معاوية قرار الإمام على رضى الله عنه بخلعه عن ولاية الشام ، وكان هو رجل الشام القوى الذى تخضع له جيوشه خضوعاً تاماً ، بل كانوا أشبه بالخاتم كما يقول الرواة فى إصبعه ، وكانت حجته أنه يريد الانتقام من قتلة عثمان . . وبدأت الحرب الأهلية فى الإسلام » .

وكـان على الإمام أن يحارب فى كل الجبهات . . يحارب جيش معاوية القوى ، ويحارب الجيش الذى كانت على رأسه السيدة عائشة رضى الله عنها وطلحة والزبير . . بل إن الإمام عليا كان عليه أن يجابـه الذين انشقوا عليه من أتباعه وهم الخوارج الذين رفضوا قرار التحكيم . . و . . اندلعت أول حرب أهلية فى الإسلام . ولم يكن هناك وقت لمزيد من الفتوحات ، بل إن الخـطر الخارجى متمثلاً فى الروم كان يتربص بالمسلمين الدوائر . . وأمست الحياة فى ظل هذه الاقتسامات أشبه ما تكون بسحابة داكنة تظلل العالم الإسلامى . . وأصبح هؤلاء الذين سادوا العالم تتهددهم المخاطر من الداخل . . من أنفسهم . . ونظر المسلمون إلى ما يجرى وانتابهم الأسى .

البعض كان يساند الإمام لأنه صاحب الحق فى الخلافة ، وابن عم رسول الله ، وزوج فاطمة الزهراء . . وله من تاريخه وعلمه وفضله وبلائه فى الإسلام ما لا ينكره إلا جاحد .

والبعض ساند معاوية طمعاً فى الدنيا ، وحباً لما عنده من العطاء .

والبعض الآخـر اعتزل هذه الفتنة وآثر الانسحاب من الحياة السياسية كسعد بن وقاص الذى قال له معاوية يوماً معاتبا :

ـ مالك لم تقاتل معنا ؟

أجـــابه سعد :

ـ إنى مررت بريح مظلمة ، فقلت : أخ . . أخ . . وأنخت راحلتى حتى انجلت عنى .

فقال معاوية : ليس فى كتاب الله أخ . . أخ ، ولكن قال الله تعالى : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى ، فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله** ﴾ .

وأنت لم تكن مع الباغية على العادلة ، ولا مع العادلة على الباغية .

فقال سعـد :

« ما كنت لأقاتل رجلاً ـ يقصد على بن أبى طالب ـ قال له رسول الله : أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » .

كانت الأحـوال فى العـالم الإسلامى صعبة . . فقد اختلطت الأمور ، وأحدق الخطر فى الداخل والخارج . .

وخاض الإمام العديد من المعارك . . وانتصر فيها . . ولكن الأمور اضطربت فى غير صالحه . . فلم يعد أتباعه ينقادون له بسهولة ، ولكنهم يسألونه فى الصغيرة والكبيرة . . ويناقشونه فى قراراته . . إلى أن انتهت خلافته باغتياله رضى الله عنه على يد ابن ملجم .

ويقول الرواة أن ابن ملجم كان قد أحب امرأة اسمها قطام ابنة الشجنة . . وكانت فاتنة الجمال ، وكان والدها وأخوها قد قتلا على يد على يوم النهر . . وعندما تقدم عبد الرحمن بن ملجم لخطبتها اشترطت عليه أن يشفيها من حزنها . . وعندما سألها عن الوسيلة قالت له : ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل على بن أبى طالب . فوافق على ذلك وقال لها : إنه ما جاء إلا لقتل على .

وتربص به عند خروجه من المسجد وضربه بالسيف . . وطلب الإمام على وهو فى جراحه قاتله وقال له :

- أى عدو الله ألم أحسن إليك ؟

قال : بلى . .

- من حملك على هذا ؟

- شحذته أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شر خلقه . . !

- لا أراك إلا مقتولاً . . ولا أراك إلا من شر خلقه .

وأوصى على : النفس بالنفس . . إن أنا مت فاقتلوه كما قتلنى وإن بقيت رأيت فيه رأيى .

ودخل عليه جندب بن عبد الله وقال للإمام :

- يا أمير المؤمنين إن فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن .

قال الإمام : ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر .

ثم أوصى الإمام الحسن والحسين وصية طويلة قال فيها : « أوصيكما بتقوى الله ، وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تبكيا على شىء زوى عنكما ، وقولا الحق ، وارحما اليتيم ، وأغيثا الملهوف ، واصنعا للآخرة ، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم ناصراً » . .

اعملا بما فى الكتاب ولا تأخذكما فى الله لومة لائم .

وفى صبيحة يوم الأحد ١٧رمضان سنة ٤٠ هجرية انتقل الإمام إلى أكرم جوار .

وبذلك انفتح الطريق تماماً لمعاوية بن أبى سفيان الذى آل الحكم إليه ، وعلى يديه تحولت الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض .

وأصبح معاوية من أقوى الملوك الذين عرفهم العالم ، فقد أحكم سيطرته على الأمور ، وتنازل الحسن بن على له عن الخلافة على أن يكون الأمر شورى بعده للمسلمين . .

وفى ظل الحكم الأموى . . توجهت الجيوش الإسلامية نحو الفتوحات . . وعادت رايات الإسلام ترتفع فى مختلف أرجاء الدنيا . . تحت قيادة حكم مركزى واحد متمثلاً فى خلفاء بنى أمية .

المد الإسلامي يواصل انتصاراته

« كانت الدعوة إلى ميدان القتال بالنسبة إلى العرب الأول أشبه ما تكون بالدعوة إلى وليمة عرس . . وكان هؤلاء الرجال مع شراستهم فى القتال شديدى الدماثة بعد النصر ، فلقد حفظوا عهـودهم تمام الحفظ ، ولم نسمع عن مجازر لا تمييز فيها قد ارتـكـبـوهـا ، ولم يكـن مما يشـين إلى جيـوش رومـا وفـارس أن ينتصر عليهما مثل هؤلاء الناس » .

[فريمـــان]

□ ٥ □

المـد الاسـلامى يواصل انتصاراته

ماذا حدث بعد أن آل الحكم لبنى أمية ، وتحولت الخلافة إلى ملك عضوض ؟ . .

وماذا حدث بعد أن تولى معاوية أو « كسرى العرب » كما كان يطلق عليه عمر بن الخطاب ؟ . .

كان على معاوية أن يدعم نظام حكمه الجديد بالقضاء على الفتن الداخلية ، وفى الوقت نفسه كان يعد العدة لينطلق بالفتوحات الإسلامية من جديد فى مختلف أرجاء الدنيا . . وكان من أهم أهـدافـه السيطرة على جزر البحـر المتوسط وحصار القسطنطينية عاصمة البيزنطيين ، ثم الانطلاق شرقاً للوصول إلى أقصى مدى من الفتوحات ، والانطلاق بالفتوحات الإسلامية إلى المغرب الأقصى . .

وكان معاوية بن أبى سفيان سياسياً بارعاً ، وصاحب كفاءة إدارية عالية .

ويصفـه المؤرخـون بأنـه كان رجلاً طويلاً . . أبيض . . جميلاً . . مهيباً . . وكان عمر ابن الخطاب يقول عنه : « هذا كسرى العرب » . . وهو يقصد أن له مهابة الأكاسرة ، وقد تحققت نبوءة عمر فقد أصبح معاوية من أعظم ملوك الأرض عندما آل إليه الحكم . .

ومن صفات معاوية البارزة حلمه الذى يفوق حدود الطاقة الإنسانية . .

ويروى الـرواة الكثـير من النوادر التى تفوق الخيال عن حكمته وقدرته على ضبط جماح نفسه ، وكظم غيظه وغضبه . .

ومن هذه الـروايات راوية تقـول أنـه عنـدمـا زار المدينة لأول مرة بعد أن أصبح خليفة للمسلمين التقى بجماعة من الأنصار فقال لهم :

ـ تلقانى الناس كلهم غيركم يا معشر الأنصار . . !

رد أحدهم :

ـ لم يكن لنا دوأب . .

قال معـاوية :

ـ وأين النواصح (الإبل) ؟

رد الرجـــل :

ـ عقرناها فى طلبك وطلب أبيك يوم بدر . .

و . . كظم معاوية غيظه . .

ومع ذلك فقد كان رغم حلمه وصبره عظيم الدهاء . . يستشير الناس . . فيما يهمهم من الأمـور . . ويسوس الدولة بيد من حديد . . أما بالنسبة للفتوحات الإسلامية ، فقد كان همه الشاغل أن يوطد الدولة الإسلامية وتصل الفتوحات إلى أقصى مدى . .

*** *** ***

انطـــلاق الفتـــح الإســـلامى

اختار معاوية لإمارة الكوفة المغيرة بن شعبة ، وهو أحد الفرسان العرب ، وقد فقد إحدى عينيه فى معركة اليرموك ، وطلب منه أن يكون مسئولاً عن الكوفة وأواسط العراق وشمال فارس . . وتولى بعده زياد ابن أبيه . . الذى امتد سلطانه من فارس حتى نهر السند . . وبمجرد أن توطد الحكم فى الـداخـل والسيطرة على الخـوارج اندفعت الفتوحات شرقاً وغرباً ، حاصر المسلمون القسطنطينية عاصمة بيزنطة نفسها لمدة سبع سنوات . . ورغم عدم سقوطها لأنها محصنة تحصيناً جيداً ، فإن المؤرخين يقولون أنه كان فى استطاعة المسلمين فى هذه الفترة الاستيلاء على إيطاليا وفرنسا وأسبانيا . .

وعلى كل حال فقد مضى المسلمون فى فتوحاتهم التى امتدت فى الشرق إلى الهند وبلاد ما وراء النهر . . ووصلوا فى زحفهم غرباً فاجتاحوا الشمال الإفريقى كله حتى وصلوا إلى المغرب الأقصى . .

ولسنـا هنا بصدد الحديث عن المعارك العسكرية التى دارت فى ساحة القتال فى الشرق أو الغـرب . . فهذه المسائل تناولتها عشرات المجلدات . . ولكننا نقف عند أهم المحاور التى غيرت مسار التاريخ الإنسانى كله . .

لقد أعطى خلفاء بنى أمية الإشارة لانطلاق الفتوحات الإسلامية ، فإذا بجيوشهم تنطلق من مصر فى محاولة لنشر نور الإسلام على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط والدول المطلة عليه حتى بلاد المغرب . . ويحدث مد وجزر . . وهزائم وانتصارات . . تنتهى بوصول عقبة بن نافع إلى المحيط الأطلنطى . . وينشىء مدينة (القيروان) لتكون مركزاً للفتوحات الإسلامية . .

وعندما يصل إلى بحر الظلمات (المحيط الأطلنطى) . . يجرى بحصانه على الشاطىء ويرفع كفيه إلى السماء ، وفى عينيه دموع . . وفى قلبه خشوع . . ويناجى ربه سبحانه وتعالى قائلاً : « اللهم إنى لم أخرج بطرا ولا أشرا . . وإنك لتعلم أنى أطلب السبب الذى طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تعبد ولا يشرك بك . . اللهم لو كنت أعلم أن وراء هذا البحر أرضاً لخضته فى سبيلك » . .

* * *

المواجهـــة مـــع البـربـــر

وكان عقبة بن نافع قد حقق هذه الانتصارات المذهلة . . ولكن حدثت نكسة حيث ارتدت الفتوحات إلى برقة . .

ـ كيـــف . . ؟

لقد عينه معاوية بن أبى سفيان قائداً للجيش الذى يوطد دعائم الإسلام فى برقة . . وكان عليه أن يواجه الروم والبربر فى وقت واحد . . وأخذ يزحف بجيوشه محققاً الانتصارات الإسلامية ، وعند موضع (القيروان) بنى مدينة القيروان لتكون قاعدة ينطلق منها فى الشمال الإفريقى ، وبنى بها مسجداً حتى يكون قاعدة لانتشار تعاليم الإسلام . .

ولكن لأمر لم يعرفه المؤرخون ، واختلفوا فيه اختلافاً شديداً عزله معاوية بن أبى سفيان . . وعاد إلى دمشق عاصمة الخلافة حزيناً . . إن أعز أمانيه أن ينشر نور الله فى كل ربوع إفريقية . . ولكن كيف السبيل إلى ذلك . . وقد أمر الخليفة أن يخلفه فى قيادة الجيوش (أبو المهاجر) . . وكان أبو المهاجر يأمل أن يعتنق البرر الإسلام . . وبالتالى تحقن الدماء . . وبالفعل استطاع أن يقنع زعيمهم (كسيلة) بالإسلام . .

ومات معاوية ، وتولى الخلافة ابنه يزيد الذى عاد فقلد عقبة بن نافع أمر القيادة . . وإن كان عقبة لم ينس (لأبى المهاجر) سوء استقباله له فأمر بأن يصفد بالحديد . . وكانت هذه أحد

أخطاء القائد الكبير ، وكان خطؤه الآخر أنه لم يستطع استمالة قائد البربر (كسيلة) الذى هرب وارتد عن الإسلام . .

وزحف عقبة بن نافع محققاً انتصارات كبيرة . . منتصراً على الروم . . والبربر . . حتى وصل إلى المغرب الأقصى (المغرب الآن) ويصل إلى المحيط الأطلنطى . . متمنياً لو كان باستطاعته أن يخوض لجة هذا المحيط لينتشر دين الله فيما وراءه من أرض إذا كانت هناك أرض . . !

وبعد أن تحقق له هذا النصر . . وفى طريق العودة . . كان الروم وحليفهم (كسيلة) قد أعدوا لهذا البطل كميناً . . فحاصروه . . وكان معه (أبو المهاجر) الذى طلب منه أن يفك قيوده حتى يموت هو الآخر شهيداً فى سبيل نصرة الله . . وجاهد البطلان جهاداً هائلاً . . إلا أنه استشهد فى هذه المعركة عند مكان اسمه (تهروة) وحلت بالمسلمين نكسة عسكرية على أثرها كان الارتداد إلى برقة . . تلك التى انطلق منها الزحف الإسلامى الأول . . وكان ذلك عام ٦٨٤ م فى أوائل حكم عبد الملك بن مروان . .

تلقى الخليفة عبد الملك بن مروان هذا النبأ ، فاعتصره الحزن . . هل يمكن أن يحدث هذا الجزر بعد المد الهائل للإسلام ، وقرر أن يواصل الزحف الإسلامى انتصاراته مهما كانت التضحيات . . وأن يعاد كل شبر فقد من الأرض التى فتحها عقبة بن نافع ، وأمر زهير بن قيس الذى كان عقبة بن نافع قد اختاره حاكماً للقيروان أن يواصل الزحف . . واستطاع (وقد انضم إليه عدد من البربر المسلمين) أن يصل إلى القيروان ، ويقتل كسيلة ، ولكنه سقط شهيداً فى طريق عودته إلى برقة عندما لقى قوة بحرية بيزنطية تغير على الشاطىء فتصدى لها واستشهد . .

وبعد أن انتهى عبد الملك بن مروان من القضاء على ثورة عبد الله بن الزبير فى الحجاز عاد فأمر بأن يخضع المغرب كله إلى الإسلام تحت قيادة « حسان بن النعمان » واستطاع هذا الجيش بمساندة البربر المسلمين أن يبسط نفوذه على المنطقة كلها . . وأن يدخل سكانها فى الإسلام أفواجاً . .

*** *** ***

الطـريق إلى الأندلـــس

وأخذت هذه الفتوحات شكلاً أكثر جسارة عندما تولى قيادة الجيوش الإسلامية موسى بن نصير ، الذى أصبح حاكماً على المغرب العربى كله منفصلاً عن مصر خاضعاً لدمشق . . واستطاع أن يحقق معجزة أخرى عندما أقنع دار الخلافة فى دمشق بفتح أسبانيا . .

وقد كان من آمال موسى بن نصير أن يعبر بجيشه قارة أوربا من غربها ليصل إلى شرقها ، ثم يجتاز تركيا فالشام ، وتصبح كل هذه المساحة الشاسعة من أوربا خاضعة للخلافة الإسلامية وتنصهر كلها فى أمة إسلامية واحدة تحت راية القرآن الكريم . .

ولكن الخليفة الوليد بن عبد الملك رفض فكرة موسى بن نصير بالوصول إلى دمشق عن طريق أوربا . . طالباً منه أن ينشر الإسلام فى ربوع البلاد المفتوحة . . حتى يتذوقوا ما فى الإسلام من قيم رفيعة عالية ، ودستور حياة للناس ليعملوا من أجل الدنيا والآخرة . .

كان موسى بن نصير طموحاً إلى أقصى ما يكون الطموح . جريئاً . . حصيفاً . . يفكر فى الأمر قبل أن يقدم عليه تفكيراً طويلاً ، ويقلب الأمور على جميع وجوهها . .ر.د قرر وسينه على أوربا عن طريق أسبانيا (الأندلس) أن يكوّن أسطولاً حتى يمكنه السيطرة على الشمال الإفريقى براً وبحراً . . واستطاع بالفعل أن تصبح جزر ميورته ومنورته . . والبليار تحت ء . 'ر البحرية الإسلامية . . وفى نفس الوقت الذى أخمد فيه ثورات المغرب . . زحف : بيوتمه حتى مدينة طنجة التى استولى عليها وعين عليها قائده الشهير طارق بن زياد . .

* * *

عبقريــة مــوسى بن نصـــير

وكان يتابع ما يجرى فى أرض الأندلس من صراعات على السلطة ويعرف ما يعانيه الشعب من الظلم والضرائب الباهظة . .

وكــان « جوليان » حاكم سبتة ، يكن كراهية شديدة للملك « لوزريق » الذى اغتصب العـرش ، ويقال أن سبب هذه الكراهية أن يوليان كان قد أرسل ابنته الجميلة (فلورندا) إلى القصر الملكى لتتمرس بتقاليد القصور . . وقد هال الملك جمالها فاغتصبها . . وأخبرت والدها بما كان منه ، فقرر فيما بينه وبين نفسه الانتقام متى سنحت له الفرصة لذلك . .

وقد شعر أنه يمكنه الاحتفاظ بسلطانه ، والانتقام من « لوزريق » لو مد يده إلى موسى ابن نصير وحببه فى غزو الأنــدلس . . ولم يكن يدرى أن موسى بن نصير كان يفكر جيداً فى الأمـر . . فهـو يعـرف أهمية الأنـدلس وهى الـطريق إلى نشر الإسـلام من خلالهـا عبر القارة الأوربية . . وكان يتحين الفرصة ، ويدرس الأوضاع فى الأندلس من جميع جوانبها ، وقد واتته الفرصة الآن ، فلماذا لا يقدم على ما يفكر فيه . . وكعادته لم يندفع ، إنما أراد أن يكتشف قوة عدوه ، فأمر أحد قواده من البربر (طريف بن مالك) أن يعبر مضيق جبل طارق ومعه أربعمائة رجل . . ومائة فارس إلى الأرض الأسبانية للاستطلاع . .

واستطاع طريف بن مالك أن يحقق أول انتصار إسلامى على الأرض الأسبانية . . مما أغرى موسى بن نصير أن يكلف قائده العظيم طارق بن زياد أن يستعد لعبور مضيق جبل طارق (الذى سمى بإسم هذا الفاتح العظيم فيما بعد) . . وينطلق باسم الله ليفتح بلاد الأندلس . . وأرسل « جوليان » بعض السفن ليعبر عليها جيش المسلمين إلى أسبانيا ، ويقول الرواة أن طارق بن زياد عندما ركب البحر وأثناء توجهه إلى فتح بلاد جديدة ، رأى فى منامه النبى عليه الصلاة والسلام ومن حوله الصحابة ، وسمع النبى ﷺ يقوله له : « تقدم لشأنك يا طارق » . .

وما كاد طارق يستيقظ من نومه حتى هزه الفرح والشوق للقاء الأعداء وليس أمامه سوى هدف واحد . . النصر أو الشهادة . .

*** *** ***

انتصار طارق بن زياد

وعندما وصل إلى الشاطىء الآخر ونزل جنوده إلى البر ، يقول بعض الرواة أنه أحرق سفنه وقال لجنده « أيها الناس . . أين المفر . . البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام » . .

إلى آخر هذه الخطبة الشهيرة . . وقد شكك بعض المؤرخين فى صحة هذه الرواية على أساس أنه ليس من المعقول أن يقطع قائد على جنوده خط الرجعة ، وخاصة إذا كان هذا القائد فى ذكاء طارق بن زياد . . بينما أيد البعض الآخر صحة حرق الأسطول على أساس أنه وضع جنوده أمام هدف واحد فقط هو ضرورة النصر أو الشهادة ولا بديل عن ذلك ، فالعودة إلى قاعدة انطلاقهم مستحيلة بعد حرق الأسطول . .

وانطلق طارق بجيشه حتى صل إلى شاطىء نهر « وادى دلكه » حيث التحم وجيش لوزريق واندفع القتال حامياً رهيباً . .

القوط يدافعون عن بلادهم دفاعاً مجيداً . .

والمسلمون مستبسلون واضعين نصب أعينهم الموت أو الشهادة ، والدافع الدينى يجعلهم يصرون على الموت لتوهب لهم الحياة ، وشاهد « لوزريق جيشه يتمزق ويتخاذل ويفر أمام ضربات المسلمين وأيقن بالهزيمة ففر من الميدان هارباً ولم يعرف أحد مصيره . . بينما توغل طارق يضم المدن الأسبانية التى استسلمت أمام تقدمه الكاسح . . وأصبحت قرطبة وغرناطة ومرسية وغيرها من الأقاليم الأسبانية تحت السيطرة الإسلامية » .

وواصل زحفه فى الأندلس حتى جاءته رسالة من موسى بن نصير بعدم الاستمرار فى الفتوحات . .

* * *

توقف الزحف الإسلامى . . لماذا ؟

وقد تعجب طارق بن زياد من رسالة موسى بن نصير كيف يأمر بوقف هذا الزحف الكاسح . . ماذا يريد موسى بن نصير من وراء ذلك ؟ لقد اجتمع على الفور مع قادة جيوشه وقرروا مواصلة الزحف رغم إرسال موسى بن نصير وأوامرة ، لقد أرادوا أن يحققوا أكبر انتصارات ما دامت الظروف مواتية أمامهم . .

والعجيب أن بعض المؤرخين يعزون أوامر موسى بن نصير بوقف التقدم إلى مواقع جديدة بدافع الغيرة من طارق ، فقد أراد أن يكون هو صاحب الفضل الأكبر فى هذا الانتصار العظيم وألا يقتطف ثمرة هذا النصر طارق بن زياد . .

وهذا الرأى ساذج للغاية . . فكيف يحقد موسى بن نصير على طارق . . وهو الذى عينه قائداً على الجيش الفاتح ، وهو الذى مهد له الطريق أمام هذه الفتوحات . . !

ولكن الواقع وراء أوامر موسى بن نصير أنه رأى بعقلية القائد المستنير أن خطوط الجيش الإسلامى فى الأندلس امتدت امتداداً رهيباً ، وأنه من الصعب الحفاظ على كل هذه الأراضى الشاسعة دون أن يكون لها نقط ارتكاز . . وأنه من الممكن للعدو أن يتسلل خلف خطوط المسلمين فينتهى الحلم ، ويتحطم وهج هذه الانتصارات . .

وما كاد موسى بن نصير يعلم بما استقر عليه أمر طارق ، حتى انطلق بجيشه وعبر المضيق إلى الأندلس وسلك طريقاً آخر غير الطريق الذى سار فيه ابن زياد وتم لهما إخضاع أسبانيا . .

و . . ويسجد لله شكراً . . وترتسم فى مخيلته خطة عملاقة طموح . . لماذا لا يواصل زحفه حتى جنوب فرنسا ، ثم يكتسح بجيوشه أوربا ضاماً إلى الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف فرنسا وإيطاليا وألمانيا ، والبلقان . . ويسقط القسطنطينية نفسها عاصمة الدولة البيزنطية ، ويعبر بجيشه الظافر مكتسحاً آسيا الصغرى . . وبذلك يتمكن من الوصول إلى دمشق عاصمة الخلافة الأموية عن طريق أوربا . .

ولو تحقق هذا الحلم لتغيرت خريطة العالم تماماً ، ولأصبحت أوربا كلها اليوم فى دائرة العالم

الإسلامى ولكن الخليفة الأموى رفض اقتراح موسى بن نصير . . وطالبه أن يثبت دعائم الإسلام فى البلاد المفتوحة . . بل استدعاه وطارق بن زياد إلى دمشق . .

وهكذا أصبحت الأندلس فى دائرة العالم الإسلامى ، حدث ذلك فى نفس الوقت الذى كانت فيه الجيوش الإسلامية فى الشرق الإسلامى قد وطدت أقدامها فى شبه القارة الهندية . .

* * *

حضـــارة الإســـلام فى الأندلـــس

لقـد كان فتح المسلمين للأندلس بداية لانطلاق حضارة الإسلام وقيمه ومثله إلى القارة الأوربية ، فقد ازدهرت هذه الحضارة ازدهاراً رائعاً : علماً وأدباً وفلسفة ، بجانب علوم القرآن ، ونقلت أوربا نقلة حضارية لم يعرف لها التاريخ مثيلاً . .

ولقد أعجبتنى دراسة للدكتور جودة هلال ، ومحمد محمود صبح عن (قرطبة فى التاريخ الإسلامى).يتحدث المؤلفان فى هذا الكتاب عن الحضارة الإسلامية وإنجازاتها الرائعة فى مدينة قرطبة . . وفى هذه الدراسة يقول الكتاب : « تذكر الروايات ويتحدث الثقات : أن هرقل الروم سأل أبـا سفيان بن حرب ـ شيخ قريش وغـطريفهـا ـ وأول مناهض لدعوة محمد عليه الصلاة والسلام ـ عن ذات محمد وأخلاقه ودعوته ، فأجاب أبو سفيان عن الأولى بقوله :

ـ إنه أكرم أرومة فى العرب . .

وعن الثانية :

ـ إنه جماع الأخلاق الكريمة ، ويدعى بين الناس بالصادق الأمين .

وأجاب عن الثالثة :

ـ بأن محمداً يدعو إلى عبادة الله وحده ، ويأمر الناس بالصدق والعفاف . .

وهنا يتأمل هرقل عاهل الروم فى مقالة شيخ قريش ، ثم يعلن على الملأ من قومه :

ـ لئن كان ما تقوله حقاً يا أبا سفيان فسيملك محمد موضع قدمى هاتين .

ثم يضيف قائلاً :

ـ ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .

لقد أيقن عظيم الروم بثاقب فكره أن محمداً صاحب ثورية جديدة ، وأنه ما جاء إلا ليعلن الحرب فى غير هوادة على السادة المتجبرين الطغاة ، ويدعو إلى التحرر من ربقة الأوثان فى شتى صورها وتباين أشكالها . .

وأن رجلا هذا شأنه لجدير بأن يملك موضع قدمى هرقل ، وما هو أبعد من موضع قدمى هرقل . . وصدقت نبوءة الرجل وصح حدسه ، وخرجت القوة المؤمنة الجديدة التى اختزنتها الصحراء عبر الأجيال ، تحمل راية الله سبحانه وتعالى ، وتبلغ عن أمره ، فتتابعت انتصاراتها الباهرة حتى وصلت شرقاً إلى أقصى الشرق ووصلت غرباً إلى أقاصى الغرب . . ولم يشهد التاريخ فى أحقابه المديدة انتصارات مظفرة مثلما شهد انتصارات الفتوح الإسلامية . .

فهذا عمرو بن العاص القائد العربى يستأذن الخليفة الثانى « عمر بن الخطاب » فى فتح مصر فيأذن له ، وينقض عليها عمرو بجيش لم تهزم له راية من قبل ، ثم يقطعها من جسم الدولة الرومانية العتيدة ليدخلها ضمن حدود الدولة الفتية الجديدة . .

ثم تمتد هذه الموجة ـ موجة النصر ـ إلى الساحل الإفريقى حتى تبلغ مداها ، وهناك عند ساحل بحر الظلمات (المحيط الأطلنطى) يقتحم عقبة بن نافع الفهرى بفرسه لجاج هذا البحر ويشهد الله نفسه أنه لو يَعلم أن وراء هذه الظلمات أرضاً لما وقف شىء دون غايته وأمانيه . .

ومرت الأيام تباعاً وانقضت سراعاً ، وآلت الخلافة الإسلامية إلى الوليد بن عبد الملك ، وبلغت الجيوش الإسلامية حينذاك أطراف العالم . . فبينما كانت هذه الجيوش تدق أبواب القارة الهندية فى الشرق كان المسلمون فى الغرب يتأملون شطآن أوربا ، ويرقون بأبصارهم إلى ما وراء مضيق هرقل ـ جبل طارق الآن ـ ثم تمتد عيونهم إلى الولايات الزاهية المشرقة ، تلك الولايات التى أبدع فى وصفها مؤرخ الأندلس لسان الدين بن الخطيب بقوله : « تمتاز أرض الأندلس بلذاذة الأقوات ، وفراهة الحيوان ، ودرر الفاكهة ، وكثرة المياه ، وتبحر العمران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنية ، وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وابيضاض ألوان الإنسان ، ونبل الأذهان ، وفنون الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفوذ الإدراك . . وإحكام التمدن بما حرمه الكثير من الأمصار » . .

ويرى المؤلفان وعندهما حق ـ أن الفتح الإسلامى لشبه جزيرة « إيبيريا » لم يكن حدثاً من الأحداث السياسية أو الحربية التى كانت دوماً تظهر على مسرح الحياة فحسب . . ولكن هذا الفتح قد تبلور فى شكله إلى حدث ثقافى رائع أهَّل الإنسان لاكتشاف الكثير من المجاهل التى لم يطرقها عقل من قبل . . ثم حفز هذا العقل على التنقيب والاختراع والابتكار ، وأفسح له الطريق ليسير بخطواته وأبحاثه واكتشافاته ، بما لم يتيسر للإنسان فى يوم ما . .

ويشهد بذلك ما أنتجته العبقرية الإنسانية فى أسبانيا الإسلامية تحت رعاية الخلفاء وأرباب الدولة فى أعوام قليلة إذا قورنت بعمر التاريخ المديد . .

وهكذا نشرت الفتوحات الإسلامية أنوار العقيدة الإسلامية فى كل مكان . . ومدت أضواء الإسلام إلى أقصى مدى يمكن أن يصدقهِ عقل . .

٦

أعلام الاسلام فى كل مكان

« وضمت الجيوش الإسلامية فى زحفها تلك الأماكن التى ما زالت لها فى القلوب مكانة خاصة ، لأنها أخرجت لنا أعلام الإسلام من أمثال البخارى ، والبيهقى والترمذى والخوارزمى وغيرهم من الذين كانت حياتهم إثراء للحياة » . .

□ ٦ □

أعلام الاسلام فى كل مكان

فى العصر الأموى بلغ المد الإسلامى أقصى مداه ، فقد عرفنا كيف واصل زحفه فى الشمال الإفريقى حتى وصل إلى شاطىء الأطلنطى ، ثم عبر مضيق جبل طارق ليضم أسبانيا ، ويواصل زحفه حتى جنوب فرنسا . .

فإذا ما اتجهنا بأبصارنا نحو الشرق ، نرى أنه بعد أن تمت هزيمة الفرس . . ودخل الإسلام إلى الأراضى الفارسية ، كان قادة المسلمين ينطلقون إلى انتشار الإسلام فى شمال فارس والهند والصين . .

وبالفعل تمت لهم السيطرة على أجزاء كبيرة من شبه القارة الهندية على يد « محمد بن القاسم » ، كما تمت لهم السيطرة على العديد من البلدان المتاخمة لفارس ، حتى وصلوا إلى خراسان وبخارى وسمرقند ، وهى التابعة الآن للاتحاد السوفيتى ، ومن هذه البلاد ظهر أعلام الفكر الإسلامى . . وقد تحققت هذه الانتصارات على يد قتيبة بن مسلم « الذى واصل زحفه الكاسح حتى استطاع على مدى ثمانى سنوات أن يخضع بخارى والتركستان . . وأرمينية ، كما استطاع أن يخضع سجستان وخوارزم ، والصفد ، وسمرقند ، وبنى المساجد ، وأخذ معه العلماء الذين راحوا يشرحون تعاليم الإسلام لهذه القبائل التى كانت تعبد الأصنام ، أو تقدس النار ، ولم يكن هدفه الفتح من أجل الفتح ، ولكن كان هدفه أن يعتنق الناس عقيدة التوحيد . . ويستظلوا بسلطان الإيمان » . .

وما داموا قد عرفوا دين التوحيد واعتنقوه ، فهم ليسوا فى حاجة إلى قوة تراقب ما يحدث فى هذه البلاد وعودتهم إلى ما كان يعبده الآباء والأجداد ، ولكن المسألة لم تكن مسألة إقامة مساجد يتردد على مآذنها الأذان ، ولكن الأهم أن يعيش الناس تجربة الإيمان ، ويستشعروا لذة اليقين ، وجمال التوحيد ، ويحسوا بنور الإيمان فى قلوبهم . .

وهذه الأمور لا تأتى بين يوم وليلة ، ولا تأتى بمجرد الوعظ والإرشاد ، ولكن يجب أن يكون

المسلمـون أنفسهم خير مثال لما ينادى به المسلمون والإسلام . . فكان أهالى هذه البلاد يرون المسلمين فى سلوكهم وتعاطفهم وتراحمهم ، وشدة تمسكهم بمكارم الأخلاق ، فكان سلوكهم أهم الوسائل لدخول الناس فى دين الله . .

ويروى الرواة أن « قتيبة بن مسلم » ، فى إحدى غزواته حذره بعض الأهالى من أن يقترب من الأصنام التى يعبدونها ، لأن مجرد الاقتراب من هذه الآلهة سوف يعرضه لأن تنتقم منه . فما كان من مسلم إلا أن أحرق هذه الآلهة المزعومة . . والأهالى ينتظرون ما سوف يحل له من عقاب .

وعندما أخذ يشرح لهم أن هذه الأحجار الصماء البكماء لا تضر ولا تنفع ، وأن عليهم عبادة خالق الأرض ، وبارىء الكون . . فإذا بجموع الناس أمام جرأة « مسلم بن قتيبة » ، وقد رأوا أن هذه الأحجار المقدسة لم تضره ، فدخلوا فى الإسلام فى أعداد غفيرة . .

أمام وهج هذه الانتصارات كان « الحجاج بن يوسف الثقفى » الذى اختاره لهذه المهمة يبعث إليه المؤن والمعدات والجنود التى يطلبها ، بل إن الخليفة « الوليد بن عبد الملك » ، أرسل له رسالة مشجعة . . ويخبره بإعجابه ببطولته وشجاعته وقيادته الممتازة التى جعلته يحرز كل هذه الانتصارات على أعداء الإسلام ، ويضع أقدام المسلمين فى هذه الأماكن البعيدة التى ما كانت تخطر على بال . .

ونحن نعـرف أن هذه البلاد أخرجت أعلاماً مازال التاريخ يحتفظ بأسمائهم ، وما زالت أعمالهم الفكرية نور هداية لكل الأجيال إلى يومنا هذا . .

فهناك من الأسماء اللامعة من تسمى بأسماء هذه البلاد التى كانوا ينتسبون إليها من أمثال البخارى ، والبيهقى ، والترمذى ، والخوارزمى ، والزمخشرى ، والنيسابورى وغيرهم من أعلام المسلمين . .

ويروى الرواة كيف استطاع « ابن قتيبية » أن يؤلف بين جنود المسلمين العرب والفرس ، فلم يفرق بين عربى وفارسى ، أو بين عربى أو أى جنسية من الذين دخلوا فى الإسلام ، وقرروا العمل تحت لوائه ، على أساس أن الإسلام قد سوى بين الجميع ، فلا فرق بين عربى وأعجمى إلا بالتقوى . . فتألفت القلوب ، وأخمد فيهم النزعات العرقية والقبلية ، فإذا بالجميع يشعرون أنهم جميعاً يحاربون تحت راية واحدة . . لهدف واحد . . عليه يعيشون . . ومن أجله يموتون . . وهو انتصار الإسلام ، ولا وسيلة أمامهم سوى النصر . . أو الشهادة . .

وتطلع القائد العظيم إلى ما وراء أسوار الصين ، فاحتل مدينة « كشجر » ، متأهباً لدخول الصين ونشر الإسلام بها ، فى الوقت الذى علم فيه بموت الوليد بن عبد الملك الخليفة الذى كان متحمساً ومشجعاً لانتصارات « ابن قتيبة » فى الشرق ، بنفس حماسته للانتصارات الإسلامية فى الغرب . .

وقبل موت عبد الملك كان الحجاج بن يوسف الثقفى الذى اختاره لهذه المهمة كان هو الآخر قد مات ، وشعر مسلم بن قتيبة ببعض الغيوم تهدد مكاسبه ، فالخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك لا يكن له الحب ، بل يظن أنه أحد الذين كانوا يخلصون كل الإخلاص لأخيه الوليد ، فهو يريد أن يقبر هذه الوجوه ، رغم أن هذه الوجوه هى التى حققت الانتصارات . . ودخلت بجيوش الإسلام داخل حدود الاتحاد السوفيتى ، واقتربوا من أسوار الصين . .

أحس « مسلم » بأن رياح التغيير قد تصيبه ، وخشى أن تنتهى أحلامه فى ضم شعوب لم تعرف الله لتدخل تحت لواء الإسلام . . وقد عانى ما عانى فى جهاده العظيم على مدى ثمانى سنوات . . رأى فيها الموت فى كل ساعة من ساعات النهار ، وذاق فى لياليها المتاعب وهو يخطط ويدبر كيف يفاجىء العدو ، وكيف يقضى على مكائده ، وكيف ينفذ إلى خطوطه العسكرية . . وكيف يبادره بالهجوم . .

. . أيام طويلة . .

وليال أكثر طولا . .

ومعاناة لا تنتهى فى محاولة نشر الإسلام ، ورأب الصدع بين جنوده وأتباعه ، وضرورة إقناع الناس بالدين الجديد ، وقد أصطحب معه العديد من علماء الإسلام حتى يبصروا الناس بأمور الدين الذى جاء مبشراً وهادياً بما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم . .

وها هو على أبواب الصين . . وأصبح سقوطها فى يده مسألة وقت . . هل يمكن أن يضيع كل هذا لا لشىء إلا أن الخليفة الجديد لا يستخف دمه ، أو يريد تصفية حسابات قديمة معه . .

وارتسمت فى ذهنه علامات استفهام طويلة حائرة ومحيرة . . هل يواصل زحفه أم ينتظر ما تأتى به الأيام من أوامر الخليفة الجديد . .

وهداه تفكيره إلى ضرورة التوسع ، ودخول الصين ، وليفعل بعد ذلك الخليفة ما يريد . . وقرر غزو الصين . .

وجاءته رسالة من ملك الصين يحملها « هبيرة الكلابى » ينذره فيها ويهدده ، ويطلب منه العودة والانسحاب بعيداً عن الأراضى الصينية وإلا فالويل له ولجنده . .

وقرر البطل العظيم أن يخوض معركته الأخيرة بشرف . . ولابد من الشهادة أو الانتصار ، وأرسل رداً عنيفاً على ملك الصين ، يطالبه بدفع الجزية وهو صاغر ، وإلا فإنه سوف يفقد عرشه ، وتنتهى دولته ، ويكون مصير ملكه إلى الزوال . .

ولم تكد رسالة البطل المسلم تصل إلى ملك الصين ، حتى خارت قواه ، فهويسمع عن

بطولة المسلم العظيم ، وعن جسارته ، واقتحامه المعارك بقلب لا يعرف الخوف إليه سبيلا ، فأرسل أحد أبنائه ومعه الجزية وهو صاغر . .

وصدق حدسه . . فلم يلبث أن جاء أمر الخليفة الجديد بعزله . . والأمر بعودته إلى دمشق . .

وشعر القائد العظيم أن عودته إلى دمشق لا تعنى أنه سوف يقابل بأكاليل الغار . . أو أن دمشق سوف تفتح ذراعيها مرحبة بالبطل الجسور الذى وطد دعائم الإسلام فى هذه البلاد البعيدة عن مقر الخلافة ، ولكن سوف يأمر الخليفة بأن يقضى بقية عمره مقيداً بالأغلال داخل سجن مظلم . .

وقرر أن يموت كما عاهد نفسه فى ميدان القتال ، ولن تنتهى حياته هذه النهاية الأليمة ، وإنه سوف يرفض قرار الخليفة الظالم ، ويواجه جيوش الخليفة . . ولم يذعن للعزل . . وفى معركة غير متكافئة لقى حتفه بسهم طائش من جنود الخليفة . . وانتهت بذلك حياة هذا الرجل الذى أوصل الإسلام إلى داخل ما يعرف الآن بالاتحاد السوفيتى . . وسمعت صهيل خيوله أهالى الصين . .

وفى عهد الدولة الأموية أيضاً . . استطاعت الجيوش الإسلامية أن تقتحم أراضى السند ، وتضم إليها مساحات شاسعة من الهند ، وكان بطل هذه الملحمة « محمد بن القاسم الثقفى » .

والعجيب أن هذا البطل الذى استطاع أن يضم باكستان الحالية إلى الرقعة الإسلامية كان ابن سبعة عشر ربيعاً عندما أرسله ابن عمه « الحجاج بن يوسف الثقفى » على رأس جيش كبير إلى الهند ليخضعها لسلطان المسلمين ، وقد سبقه إلى هذه البقاع بعض القادة الذين فشلوا فى تحقيق هذا الحلم الذى راود المسلمين الأوائل منذ أيام عمر بن الخطاب ، إلى أن قام بتحقيقه هذا الشاب الصغير الذى كان مثله الأعلى أنه ينتمى إلى قبيلة ثقيف التى أنجبت « الحجاج بن يوسف الثقفى » . .

كان مثله « الحجاج » ، فقد شب وأهله يتحدثون عن فروسية الحجاج وشجاعته وقدرته على حسم الأمور ، وأنه هو الذى ثبت أركان الحكم الأموى بعد أن قضى على ثورة « عبد الله بن الزبير» فى الحجاز، وكان أيضاً محباً للقراءة ليكون بليغاً فصيحاً كما كان الحجاج بن يوسف .

صحيح أنه لم يكن فيه غلظة الحجاج ولا شدته وقسوته على أعداء الدولة . . وربما يرجع السبب إلى أن « محمد بن القاسم » كان يعد نفسه لقيادة الجيش فى ميادين القتال ، ولم يكن يريد أن يتمرس بأساليب رجل الدولة ، أو رجل السياسة . .

والحجاج وقد دعم الحكم الأموى بشدة قبضته على الخارجين عن بنى أمية ، إلا أن للرجل مآثره عندما أخذ يشجع قادة المسلمين على الفتوحات التى امتدت إلى العديد من الأقاليم السوفيتية الحالية ، كما كان هو أيضاً يشجع على فتح الهند . .

ويقول بعض الرواة أن السبب فى فتح الهند يرجع إلى أن بعض قراصنة « الديبل » أسر سفينة قادمة من جزيرة سيلان وعلى متنها بعض النساء المسلمات ، وأن هؤلاء النسوة أثناء مهاجمتهن صحن : « يا حجاجاه . . » . .

وعندما سمع بذلك الحجاج أرسل إلى ملكهم يطالبه بفك أسرى النساء المسلمات ، وكان رد الملك فظاً غليظاً . . فأرسل إليه الحجاج المرة تلو المرة من يغزوه ، ولكن نتيجة الغزو كانت دائماً تنتهى بالهزيمة . .

وسواء أصحت هذه الرواية أم كانت من نسج خيال الرواة ، فإن الحقيقة التى لا خلاف عليها أن « الحجاج » اختار « محمد بن القاسم » ليمد سلطان الإسلام إلى شبه القارة الهندية ، وأنه أسند إليه قيادة جيش يضم عشرين ألف مقاتل ، مجهزين بالأسلحة والعتاد وكل متطلبات الحرب إلى السند لترتفع راية الإسلام فوق ربوعها . .

وينطلق النداء الخالد : « الله أكبر » . . فوق المآذن التى سوف تقام بها . .

وتقدم محمد بن القاسم ابن السبعة عشر ربيعاً إلى هذه البلاد ، وأمله أن يتحقق له النصر أو الشهادة ولا وسط بين الاختيارين . .

اجتاز بجيوشه المتعطشة إلى الجهاد الأراضى الإيرانية متجهاً إلى « الديبل » حيث سقطت أمام زحفه بعض المدن الهندية ، ثم حاصر حصن « الراجر واجر » الحاكم ، وأحكم الحصار حول الحصن بالمنجنيق ،وشاهد وسط الحصن أحد الأوثان ، وقد وضع فوقه علم يدور فى اتجاه الريح وأمر بتصويب المنجنيق نحوه ، وتحطيمه . .

وبتحطيم هذا الوثن الذى كان يتصور الناس أن من يصيبه بسوء يمسه السوء . . ولكنهم وجدوا « محمد بن القاسم » مصمماً على اقتحام الأسوار ، واحتلال الحصن ، وإذلال حاكمهم المتعجرف ، ولم يصب بداء . . ولم يمسه سوء ، فانهارت معنوياتهم ، وهزموا شر هزيمة عندما استطاع المسلمون اقتحام الحصن وهزيمتهم بعد أن انهارت قواهم تماماً . .

وارتفعت أصوات التكبير تعلن انتصار الإسلام فى تلك الأراضى التى كانت تعبد الأوثان ، وتقدس حجارة صماء . . ثم واصل زحفه فى أرض السند ، وهو يعد لكل أمر عدته ، فقد فوجىء فى إحدى المعارك بأن جيش الأعداء يريدون إرهابه بالفيلة التى تتقدمهم ، فما كان منه إلا أن صوب إليهم قذائف ملتهبة من النيران ، فتقهقرت الفيلة ، ولاذ الأعداء بالفرار ، وسقط (الراجه داهى) قتيلا . .

وواصل البطل الجسور زحفه عبر طبيعة لم يعرفها من قبل ، وقاتل على أرض يجهل تضاريسها ، حتى وصل إلى « البلقان » فى أقصى الشمال .

ولكن العجيب أن هذا البطل العظيم وهو فى أوج انتصاراته استدعى للعودة إلى دمشق مقر الخلافة لتصفية حسابات قديمة ، لم يكن هو طرفاً فيها . . ولكن الخليفة سليمان بن عبد الملك أراد أن ينتقم منه فى شخص الحجاج بن يوسف فلفقت لهما التهم الظالمة . . وكانت نهايته الموت بلا مبرر . .

وهكذا امتد الإسلام من الأندلس إلى داخل الاتحاد السوفييتى . . ورفع أعلامه على الهند ، ووصل زحفه حتى أسوار الصين العظيم . .

٧

غزو العقول والقلوب

* كيف استطاع رجل واحد .. وهو محمد عليه الصلاة والسلام - أن يحدث كل هذا التغيير؟! ..

[أنتونى ناتنج]

* « ولقد تطلب بناء الإمبراطورية الرومانية قروناً طويلة من عمر الزمن ، وكانت فرنسا أقوى الدول الأوربية قبل مجىء نابليون بأمد طويل ، أما العرب فكانوا فريدين فى هذه السرعة التى تشبه سرعة العواصف والتى ساروا فيها منذ فتوحاتهم بدءاً من لا شىء » ..

[جلوب]

□ ٧ □

غــزو العقـــول والقلــوب

رأينا كيف تحققت الانتصارات الإسلامية بصورة لم تكن تخطر على البال .. فامتدت من المحيط الأطلنطى حتى الصين ، وضمت إليها أسبانيا مواصلة زحفها حتى جنوب فرنسا ..

تحققت هذه الانتصارات فى فترة زمنية قصيرة ، ولم يكن هدف الفاتحين مجرد ضم أراض جديدة ، أو الهدف من هذه الفتوحات البحث عن ثروات ينعمون بها ، ولكن كان الهدف من هذه الفتـوحات هو الحفاظ على دينهم من أن يتعرض لهجوم أعدائه ، ثم نشر نور الإسلام فى مختلف بلدان العالم لينعم الناس بما فيه من قيم ومبادىء وشرائع ، وبما فيه من حضارة قادرة على أن تمنح عطاياها لكل من يستظل بظلها ..

ولنقف وقفة أمام أحد الذين كتبوا عن الفتوحات الإسلامية وتوسعها الكبير ، أمام معاوية ابن أبى سفيان ، وهو « جون باجوت جلوب » فى كتابه « الفتوحات العربية الكبرى » الذى ترجمه إلى العربية « خيرى حماد » ، يقول :

« ففى أقل من خمسين عاماً تمكن بدو الجزيرة العربية من أن يقيموا أعظم إمبراطورية عرفها العالم آنذاك ، ومن أعظم الإمبراطوريات التى عرفها التاريخ ، ولم يسبق لأية إمبراطورية بمثل هذه الضخـامـة ، وذاك الاتساع أن أقيمت فى مثـل هذا الـوقت القصير باستثناء إمبراطورية الإسكندر الأكبر ، التى ما لبث أن تمزقت عند موته ، أما الإمبراطورية العربية ، فقد قدر لها أن تعمر وهى كاملة زهاء قرنين ونصف القرن ، وأن تطول مدة تقلصها زهاء سبعة قرون » ..

ولعل من الطريف أن نعقد مقارنة بينها وبين إمبراطورية الإسكندر التى كانت تشغل تقريباً البـلاد التى شغلتهـا إمبراطورية العرب ، فهناك من ناحية واحدة على الأقل مفارقة غريبة كل الغرابة ، إذ أن إمبراطورية الإسكندر مدينة بوجودها إلى شخصية رجل واحد ، تعتبر فوق المستوى العادى للإنسان ، ولقد قيل من الناحية الأخرى : إن العرب أقاموا إمبراطوريتهم لا بفضل قادتهم بل على الرغم منهم ..

وعند هذه النقطة نتفق مع مترجم الكتاب فى تعليقه على هذه الفقرة بقوله : « أنا لا أفهم معنى هذا التعبير مطلقاً ، ولا أستطيع أن أقبل هذه المقارنة على النحو الذى صيغت فيه ، فكما أن إمبراطورية الإسكندر ، مدينة بوجودها إلى شخصية رجل فرد هو « الإسكندر » فإن الإمبراطورية العربية مدينة بوجودها إلى شخصية النبى محمد بن عبد الله ﷺ ، إذ تمكن من توحيد العرب وجمع شملهم تحت راية الإسلام ، وأيدهم بنور الإيمان أشخاص آخرون حملوا كلمة الله لينشروها فى العالم . فكانت تلك الفتوح العظيمة التى لم يشهد العالم مثلاً لها من قبل » . .

ولعل الفرق الجوهرى الذى فات المؤلف أن يذكره ، هو أن إمبراطورية الإسكندر انهارت فور موته لأنه لم يحمل للعالم رسالة كرسالة محمد ﷺ . . وإمبراطورية العرب ظلت قروناً طويلة لأنها اتصلت برسالة محمد ﷺ ، وكانت تجسيداً لها ، ولم تضعف هذه الإمبراطورية وتصب بالانهيار إلا بعد أن ضعف الإسلام فى قلوب المسلمين . .

ولنعد إلى كلام « جلوب » فى حديثه عن الفتوحات الإسلامية إلى فترة معاوية . . فيقول : « وكانت الفتوح العربية فريدة فى نوعها من ناحية أخرى ، فقبل أن تبدأ هذه الإمبراطورية كانت الدولتان العظيمتان فى العالم آنذاك تنظران إلى العرب نظرة الازدراء ، لقد عاشت اليمن فترة مستعمرة حبشية ، ثم عادت فأصبحت مستعمرة فارسية » . .

وكان الأميران العربيان الوحيدان اللذان يستحقان حمل هذا الاسم فى الجاهلية خاضعين بدورهما لإمبراطوريتى الروم والفرس ، ولم يكن للعرب شأن يذكر فى ميدان الحرب فى أيام الجاهلية ، وكان الروم من الناحية الأخرى أشهر مقاتلين فى تلك الأيام . . وترجع شهرتهم حتى إلى الأيام التى سبقت مجىء الإسكندر وفتوحاته العظيمة . .

ولقد تطلب بناء الإمبراطورية الرومانية قروناً طويلة من عمر الزمن . . وكانت فرنسا أقوى الدول الأوربية قبل مجىء نابليون بأمد طويل ، أما العرب فكانوا فريدين فى هذه السرعة التى تشبه سرعة العواصف والتى سار فيها مد من فتوحاتهم من لا شىء . .

ولقد غيرت السنوات الخمسون التى انصرمت بين عامى ٦٣٠ و ٦٨٠ خريطة العالم حقاً . . ولم يبق على هذه الخريطة شىء من المعالم القديمة . . ولقد وصف البحر المتوسط فى العهود القديمة بأنه حوض رومانى ، إذ كان قلب إمبراطورية الرومان ومركزها الحساس . . وكان الوسط الذى يرتحل فيه الرومان من مصر إلى مصر ومن إقليم إلى إقليم . . وكان الساحل الشمالى لإفريقية جزءاً من العالم الذى يضم فرنسا وأسبانيا وإيطاليا . .

وكان الشرق يبدأ عند الحدود الفاصلة بين رومة وفارس ، وهى الحدود التى تقوم الآن بين سورية والعراق . . وجاءت الفتوح العربية فجزأت البحر المتوسط إلى جزأين شمالى وجنوبى ،

وعلى الرغم من أن بلدان الإمبراطورية العربية لم تكن مأهولة بشعب واحد . . وعلى الرغم من أن الشمال الإفريقى يختلف اليوم اختلافا كبيراً عن الجزيرة العربية ، فإن الفتوح العربية فرضت كشكل ظاهرى على الأقل طريقة الحياة نفسها على جميع البلاد الممتدة من فارس وحتى من الهند إلى مراكش ، وهى الطريقة التى ندعوها اليوم بالطريقة الشرقية . .

وقد يكون من الصعب علينا أن ندرك أن شعباً واحداً كان يسكن الجزائر ومراكش فى قارة أفريقية ، وأسبانيا وإيطاليا فى أوربا . . وهناك ظلال عدة من المعانى لكلمة « عظيم » إلا أننا على العموم نربط بين هذه الصفة وبين شىء أكثر من مجرد الحجم ، ونحن نتحرى دائماً عن المزايا الروحية . . أو المعنوية التى فى إنسان أو فى عمل نود أن نطلق عليه صفة العظمة . . وقد قدر للمسلمين بعد انتهاء الحرب الأهلية أن يستأنفوا فتوحهم وأن يوطدوا أقدامهم فى الشمال الأفريقى ثم يحتلوا أسبانيا ويغزوا فرنسا وإيطاليا ويسيطروا على مالطة وصقلية . . ولكن هذه العمليات العسكرية لم تعد كما كانت عمليات عربية صرفة . . فلقد أصبحت الإمبراطورية متعددة الأجناس والعناصر . . ولم تعد صفة العظمة تطلق على هذه العمليات ، لأنها لم تعد مستوحاة من ذلك الخلاص العاطفى العميق العنيف الذى رافق فتوح العرب فى الخمسين سنة الأولى .

وربما نجد أن علامة الاستفهام الحائرة التى ارتسمت فى أذهان الناس فى مختلف عصور التاريخ هى : كيف أصبح للعرب كل هذا النفوذ على العالم فى سنوات قليلة من عمر التاريخ ؟

كل مسلم يعرف أن قوة المسلمين نبعث من دينهم الحنيف ، فقد جعل منهم الإسلام قوة لا تخشى إلا الله . . وأن الإنسان لا يملك أن يضر الإنسان أو ينفعه إلا بشىء قد كتبه الله عليه . . فلم تعرف قلوبهم الخوف . . وكانوا فى جهادهم العظيم ليس أمامهم سوى الموت وشرف الشهادة ، أو الانتصار وشرف تغيير الحياة فى عالم رزح طويلاً تحت ظلم الإمبراطورية الفارسية وظلم الإمبراطورية الرومانية ، والذين لم يروا فى الأمم التى شاء حظها التعس أن تقع تحت استعمارهما إلا مخلوقات لا ترقى إلى مستوى الإنسان . .

بل إننا نرى « أنتونى ناتنج » وهو وزير إنجليزى سابق يتحدث فى كتابه (العرب تاريخ وحضارة) فيتساءل : كيف استطاع رجل واحد (يقصد النبى عليه الصلاة والسلام) أن يحدث كل هذا التغيير ؟ . .

إنه يتساءل ويجيب من خلال قراءته للتاريخ الإسلامى . . فيقول : والسؤال الآن هو : « كيف استطاع رجل واحد أن يقود هذه الكثرة الهائلة من تابعيه لكى ينبذوا حياتهم القائمة على عبادة الأصنام ، مؤثرين عليها حياة صارمة وعرة قوامها الإيمان الخالص ؟ » . .

من المؤكد أن السبب لم يكن هو عراقة المنبت لأن كثيرين فى معسكر قريش المضاد كانوا

كذلك من ذوى الحسب ، وكانوا أوفر نفوذاً وسلطاناً فى مكة والحجاز . . ولا كان السبب هو هالة النجاح التى حفت على طريق الظفر والانتصار . . إنما الجواب واحد :

هو الإسلام ، بما قام عليه من إعلان صريح للتوحيد ، ولما انطوت عليه رسالته الروحية من دعوة إلى العدل الاجتماعى ، وهى دعوة مست بصفة خاصة قلوب السواد الأعظم فى الحجاز ممن كانوا مستضعفين فى الأرض . . وكانت دعوة الإسلام هى الحافز الأكبر وراء الفتوحات العربية الكبرى التى أعقبت وفاة النبى ﷺ . . وهكذا غيرت دعوة محمد ﷺ بلاد العرب ، وحولت العرب أنفسهم فى الشطر الأكبر من شبه الجزيرة إلى أمة متحدة منظمة قادرة على الدفاع عن وطنها الأم وتوسيع حدودها ، كما تجلى فى الأحداث التالية ، إلى أقاصى الأرض . . ومن خلال القواعد الدينية للعقيدة غرس فى نفوس الطبقات الحاكمة فى الحجاز إحساساً جديداً بالمسئولية حيال رعاياها ، وهيأ للجماهير المحرومة قاعدة جديدة للعدالة الاجتماعية . .

ولعل أشد مايستأثر بلب دارس التاريخ العربى من غير المسلمين إنما هو ما طبع عليه محمد ﷺ من صفات الإنسانية . . كان أكثر الناس فهما للقصور البشرى ، ومن ثم كان أرحم الناس بالناس . . وكان عزوفاً عن متاع الحياة ، وعند وفاته لم يترك سوى درع وقميص وعمامة وثوب مرقع وقربة ، وحشية من سعف النخيل . . وكان نصيبه من الغنائم وهو الخمس ينفق كله فى سبيل الإسلام . .

ولقد كان آية فى الرحمة حتى للعدو والمنهزم ، وأروع ما تجلى ذلك فى مكة والطائف ، حين أقرت قريش بهزيمتها وأصبحت إخوة له فى الإسلام . .

هذا هو محمد إذن ـ الإنسان العادى الذى اختاره الله رسولاً وخاتماً للنبيين ، الذى أحس منذ صباه أنه مدعو لتغيير العالم الشرير الفاسد الذى كان يعيش فيه ، والذى أدت رسالة الإسلام التى بعثه الله بها إلى توحيد العرب فى عقيدة دينية قوامها الإيمان بالله الواحد الأحد ، والذى أظفره الله على الأنانية والخرافة والجهالة ، ومكن لدعوته الخالدة أن تستأثر بقلوب مئات الملايين فى كافة الأقطار والأمصار . .

ولم تكن الفتوحات الإسلامية تهدف إلى إرغام الناس على اعتناق الإسلام . . ولكن الإسلام كان يحمى نفسه من أن يهاجم فى عقر داره ويقضى عليه أعداؤه والجزية التى كان يفرضها المسلمون على البلاد التى خضعت لهم إنما هى مشاركة من أهالى هذه البلاد ، الذين لم يدخلوا فى الإسلام فى أعباء الدولة . .

فالقتال لم يكن هدفاً فى ذاته ، ولكن دفعاً للأذى عن المسلمين .

﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد

استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم * الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . .

والقتال كتب على المسلمين على ما فيه من ضرورة حتى يمكن للمسلمين الدفاع عن أنفسهم : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ . .

ومن هنا أيضاً كان حرص المسلمين على السلام ، لأن تعاليم دينهم تأمرهم بذلك : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾ . .

ولقد ظل المسلمون فى مكة ثلاث عشرة سنة يتعرضون للاضطهاد وسلب الأموال ، حتى هاجر منهم إلى الحبشة فراراً بدينه من هاجر ، إلى أن أمر الله رسوله ﷺ بالهجرة إلى المدينة . . ورغم ذلك كان خطر مكة ما يزال قائماً لمهاجمة المسلمين فى المدينة ، كما أن اليهود فى المدينة كانوا يتربصون الدوائر بالمسلمين . . وكان لابد أن يشرع الجهاد فى سبيل الله ، حتى لايؤخذ المسلمون على غرة ، وحتى يأمنوا على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم إن تعرض إليهم معتد بعد طول صبرهم . . فنزل قول الله تعالى : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز * الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ . .

وعندما بدأ الإسلام يغزو القلوب والعقول ، ويحكم سيطرته على شبه الجزيرة العربية فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ابتدأ الفرس يشعرون بالخطر القادم من شبه جزيرة العرب . . وكذلك الروم . . فكان لابد من المجابهة . . وقد حدث فى عهد الرسول العظيم نفسه معركة « مؤتة » التى كانت أول احتكاك بين المسلمين والروم ، والتى استطاع خالد بن الوليد أن ينسحب بقواته منها عائداً إلى المدينة بعد أن آل أمر القيادة إليه ، وكانت « تبوك » التى قادها النبى ﷺ بنفسه ، ثم كان لابد بعد الانتهاء من حروب الردة من تأمين حدود الدولة الإسلامية بالهجوم لا بالانتظار حتى تقوم إحدى الدول الكبرى كلتاهما بغزو مدينة الرسول ﷺ ، فكانت هذه الفتوحات الإسلامية التى اتسمت بالتحضر والرقى فى معاملة الأعداء . . ومعاملة من يقع منهم أسيراً فى قبضة المسلمين . .

فقد علمهم رسول الله ﷺ كيف يعاملون أعداء الإسلام ، وكان فى ذهنهم ما كان ينصح به الرسول ﷺ أمراء جنوده : « اغزوا على الله وفى سبيل الله ، اغزوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ،

ولا تغدروا ولا تمثلوا ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيهن أجابوك إليها فاقبل منهم ، وإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم » . .

وعلى هذا النهج العظيم سار خلفاء الرسول العظيم ﷺ ، فالصديق ـ رضى الله عنه ـ يوصى أسامة بن زيد ، فيقول : « لا تخونوا ولا تغلوا ولا تفسدوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تقطعوا نخلة ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله ، وسوف تمرن على قوم فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم فيما فرغوا أنفسهم له » . .

ثم تبلغ الرحمة حتى فى ميادين القتال الذروة ، التى يبدو من خلالها عظمة ما جاء به الإسلام من تعاليم ومثل ومبادىء . . فالحرب التى تسيل فيها الدماء ، وتتطاير الأشلاء ، ويسقط الضحايا . . وسط هذا الهول لا ينسى الإسلام المبادىء والقيم . .

فالصديق يوصى يزيد بن أبى سفيان ، وهو فى طريقه لمجابهة الروم فى الشام : « ولا تقاتل مجروحاً فإن بعضه ليس منه ، أقلل من الكلام ، فإن لك ما وعى عنك ، وأقبل من الناس علانيتهم وكلهم إلى الله فى سرائرهم . . ولا تتجسس على عسكرك فتفضحه ، ولا تهمله فتفسده ، وأستودعك الله الذى لا تضيع ودائعه » . .

ويرسم عمر بن الخطاب صورة رائعة لما ينبغى أن تكون عليه القيادة الحكيمة ، فيرسل إلى سعد بن أبى وقاص من كتاب له يقول :

«وترفق بالمسلمين فى سيرهم ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم ، والسفر لم ينتقص من قوتهم ، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامى الأنفس والكراع ، وأقم بمن معك فى كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم . . ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق به ولا يرزأ أحد من أهلها شيئاً فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولوهم خيراً ولا تنتظروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح . . وإذا وطئت أرض عدوك فأذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك من أمرهم شىء ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن الكذوب لا ينفعك خبره ، وإن صدق فى بعضه ، والغاش عين عليك وليس عيناً لك . . وليكن معك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم ، فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم . . واختر للطلائع أهل البأس والرأى من أصحابك ، وتخير لهم سوابق الخير فإن لقوا عدوا كان أول ما تلقاهم القوة ، واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على البلاء ، ولا تخص أحدا بهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حبيت به أهل خاصتك ، ولا تبعث طليعة

ولا سرية فى وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة أو نكاية ، فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك واجمع إليك مكيدتك وقوتك ثم لا تعاجلهم بالمناجزة ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنعه بك ، ثم أذك حراسك على عسكرك . . وتيقظ من البيات جهدك » . .

لقد خرج المسلمون وهم يحملون راية الجهاد إلى بلاد لم يعرفوا طبيعتها ولا تضاريسها ولا مناخها . . ولا يهمهم إلا الجهاد فى سبيل نشر وإعلاء عقيدة التوحيد . . فهم يوقنون أن الموت مصير كل حى . .

ولا قيمة للحياة فى ظل العبودية أو الخوف . . وأيقنوا من خلال صراعهم من أجل دينهم أن الأعمار بيد الله ، وليست مرتبطة بميادين القتال . . فخالد بن الوليد الذى خاض غمار عشرات المعارك لم يمت إلا على فراشه حتى أنه قال كلمته الخالدة : « لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وليس فى جسمى موضع بغير طعنة ، وهأنذا أموت على فراشى كالبعير ، لا نامت أعين الجبناء » . .

ومادام الأجل بيد الله . . فلا معنى للخوف أو التردد . . ثم من هو الذى يرفض هذا العقد بينه وبين خالقه ، وبمقتضاه يجاهد المسلم فى سبيل رضاء الله والجنة ، كما أن هؤلاء الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ . .

ولعل من أجمل ما قرأت فى هذا المجال ما كتبه الأستاذ فتحى رضوان عن الجهاد . . إنه يقول : « إن الجهاد هو ثمرة الإيمان الأولى ، لذلك كانت رعاية رسول الله ﷺ لإيمان صحابته وأتباعه فى المقام الأول عنده ، فولى تربيتهم حينما كان الإسلام مطارداً بالقول والفعل ، وقبل كل شىء بالمثل يضرب به وبالقدوة يقدمها . . فقد كان لا يؤثر نفسه على المسلمين بأى شىء مهما صغر ، يقوم بنصيبه فى العمل مهما ضؤل . . أو مهما صغب ، ولا يخص نفسه بطعام لا يجدونه ولا بثوب لا يحصلون على مثله ، بل إنه كان عليه الصلاة والسلام ، أقسى المسلمين على نفسه حرماناً وتجويعاً وسهراً وتأديباً . . فتأسى به كبار الصحابة ، فذهبوا فى إنكار الذات وحب المشقة . . والصبر على الشدائد ، مثلاً غير مسبوق فى تاريخ الحركات الدينية والسياسية معاً ، لا يدانيهم فى بذلهم وصبرهم ، وحسن بلائهم حتى ولا الذين فرضوا على نفسهم الرهبنة ، فالرهبان يلزمون البيع والصوامع ، وأصحاب الرسول فى ميادين القتال ، يبذلون الروح والدم ، وينهضون بأعباء الدنيا . . وقد ذهبت حجرة الرسول مثلاً للتقشف والزهد ، فقد كانت مبنية من الجريد والطين ، وأكسية من الشعر ، تشد هذا الجريد بعضها إلى بعض أما ارتفاع هذه الحجرة فقد كان يقول حسن البصرى : لقد رأيت حجرات الرسول ﷺ ، وأنا غلام مراهق ، كنت أمد يدى فألمس السقف » . .

ولم يكن تقشف الرسول ﷺ لكونه نبياً يحمل ما لا يحمله سواه من البشر ، فقد كان من أنبياء الله ملوك كداود وسليمان ، وكان منهم وزراء كيوسف بن يعقوب ، وكان هؤلاء لا يعيشون عيشة الزهاد . . لأن مقتضيات الحكم والملك تفرض عليهم أن يعيشوا كما يعيش الملوك والوزراء . .

ولكن محمداً رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يعد أمة المسلمين لتنشر رسالته . . ولتحمل إلى الناس ديناً ، وهو ما لم يكلف به لا داود ولا سليمان ولا يوسف عليهم السلام . .

فمحمد رسول الله ﷺ كان إماماً للمسلمين ، وقائداً لجماعتهم وهادياً لهديهم ، وكان يعلم أن أمته لن تنهض بعبء الرسالة إلا إذا تهيأت لفريضة الجهاد ، كأحسن ما يكون التهيؤ . . لكى تبقى نفوسها ساهرة يقظة ، لا تغفل عن فعل الشهوات ، وعبث النفس الإنسانية ، والنفس أمارة بالسوء . . وقد نجحت القدوة التى ضربها الرسول ﷺ فحولت رجالاً أصحاء أقوياء كعمر ابن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما إلى رواد فى الصبر والجوع ، واحتمال الأذى . .

ولو تركوا على سجيتهم وعاشوا عيشة أمثالهم من علية القوم فى العيش لأكلوا أفخر الطعام ولبسوا الخز والديباج ، وقد حاكاهم ، من يليهم فى الحركة المحمدية ـ كل قدر استطاعته ـ ثم اقتدى بهؤلاء وهؤلاء ألوف بعد ألوف من المسلمين ، فنشأ من ذلك مجتمع مسلم ، يضبط نفسه بل يلجمها ويحملها على القناعة بالقليل والازدراء عن الترف وكراهية الإسراف والبذخ ، ولذا كانت تلبية الدعوة إلى الجهاد عليهم سهلة ولهم محببة . .

وبهذه الروح استطاع المسلمون الأوائل ، أولاً : أن يتلقوا الدعوة من الرسول ، وأن يفهموها ، ثم يؤمنوا بها . . ثانياً : أن يقفوا إلى جوار الرسول ينافحون عن هذه الدعوة ويصدون معه حملات الشرك ويتحملون أذى المشركين وعسفهم صابرين ، ثم ينازلون الكفر فى الموقعة بعد الموقعة . . ثم ثالثاً : ينقلبون من الدفاع عن العقيدة إلى الهجوم على خصومها فيقوضون سلطان قريش بكل جاهها ومالها وسيادتها على النفوس والعقول . . ثم رابعاً : ينطلقون من حدود جزيرة العرب ليحملوا راية الإسلام ، ويرفعوا كلمته ويخوضوا أقسى المعارك وأعظمها فى تاريخ العقائد والأديان فيثلون عرش الأكاسرة ويزيلون ملك الأباطرة الفرس والرومان وقتذاك ، دولتا الحرب والسياسة وفيهم دهاقين الفتن وأساطين الميادين . .

فالجهاد كما رأيت هو عقيدة ، ثم هو قدوة ثم هو تدريب ورياضة ومثابرة ومرابطة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ . .

٨

قوة العقيدة .. لا قوة السيف

رأس الأمـــر الإســـــلام ..

وعمــــــوده الصــــــلاة ..

وذروة سنـــــامـه الجهـــــاد ..

[حــديث شــريف]

□ ٨ □

قوة العقيدة .. لا قوة السيف

كانت انتصارات المسلمين انتصارات باهرة ، فقد بدأوا زحفهم لمجابهة أقوى قوى زمانهم : الفرس والرومان ، فى عهد الصديق ثم اكتساحهم لأعدائهم فى خلافة عمر . . ومواصلة الانتصارات فى أوائل حكم عثمان ، ثم هدأ الزحف وما كاد يتوقف فى خلافة علىٍّ نتيجة احتدام الفتنة بين على ومعاوية . . وعاد الزحف عندما استشهد الإمام على رضى الله عنه ، وتحول الحكم إلى ملك عضوض على يد معاوية . . وأخذ الزحف الإسلامى يمتد شرقاً وغرباً ، حتى امتد من الصين إلى المحيط الأطلنطى . .

وعندما سقطت دولة بنى أمية وقامت خلافة بنى العباس كانت مهمة الخلفاء فى العصور الذهبية لهذا الحكم هى توطيد دعائم حكمهم فى هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف ، وتأديب الخارجين عليهم ، ومجابهة الروم حينا ومهادنتهم أحياناً ، إلى أن تحولت الدولة العباسية إلى دويلات بعد أن ضعف سلطانها . . ولم تعد فى قدرتها السيطرة على كل أنحاء هذه الإمبراطورية . . وكانت هذه بداية الغروب لسيطرة المسلمين . . وبداية الضعف والدخول فى شفق الغروب الحزين ، وفى فترات ضعف الدولة العباسية كان يظهر فى بعض الأحيان بعض الولاة الأقوياء الذين استطاعوا أن يتصدوا بكل قوة لكل من يحاول الاعتداء على الأمة الإسلامية ويوقفون الأعداء . . ويضعون نهاية لمخططاتهم الاستعمارية . .

وكان المد الإسلامى الهائل فى العصر الأموى قد بدأ يتعرض للجزر بقيام بعض الثورات فى الأقاليم البعيدة المختلفة ، كما بدأ الزحف الإسلامى نحو أوربا يتوقف عقب هزيمة المسلمين فى بلاط الشهداء عندما انهزموا أمام جيش أوربا الذى كان بقيادة « شارل مارتل » والذى جمع فيه جيشاً ضخماً من فرنسا وممن تطوع من جهات أوربا المختلفة ، وضم هذا الجيش قطاع الطرق واللصوص ، وقد دافع عبد الرحمن الغافقى قائد جيش المسلمين فى أسبانيا دفاعاً مجيداً ضد همجية أوربا . . وكان يخطب جنوده قبل المعركة وينصحهم بعدم ترك أماكنهم والجرى وراء الأسلاب إذا ما ظهر فجر الانتصار . . ولكن ما كان يصبو إليه هذا القائد العظيم الذى كان يأمل أن يدخل

.جنوب فرنسا ، ثم يكتسح أوربا ويخضع لسيطرته إيطاليا ، ثم يواصل زحفه نحو الدردنيل ومحاصرة القسطنطينية والذهاب إلى دمشق عبر الدردنيل . . نفس الحلم الذى كان يحلم به موسى ابن نصير. ؛ ولكن الأحلام شىء وما جاء به الواقع المرير شىء آخر . .

فما كاد يدخل بثقله فى المعركة ويرى جنوده هزيمة العدو وتركه مئات الجثث فى ميدان المعركة ، ثم شاهدوا الغنائم الضخمة ، فسال لعابهم . . وأسرعوا نحو هذه الغنائم . . بينما أرسل شارل مارتل منتهزاً هذه الفرصة بأن دفع بآلاف من جنوده إلى قلب المعركة . .

وإذا بالمعركة يختل ميزانها لغير صالح المسلمين . . وإذا بعبد الرحمن الغافقى يقاتل بكل ما يملك من شجاعة القلب والعقل وحوله المخلصون من الرجال الذين دخلوا هذه المعركة من أجل العقيدة ، وليس من أجل دنيا أو منصب أو جاه . . أو غنيمة . . وقد جعلوا الاستشهاد فى سبيل الله بغيتهم حتى ينالوا شرف الشهادة . .

وسقط البطل العظيم عبد الرحمن الغافقى شهيداً . . وزاد فى الوقت نفسه تدفق جيوش شارل مارتل إلى ميدان المعركة . .

وشاهد جند المسلمين أن ميزان القوى قد مال فى غير صالحهم . . وأن قائدهم العظيم الذى طالما خاض بهم المعارك الناجحة من قبل قد سقط شهيداً فى ميدان القتال ، فخارت قواهم المعنوية ، ثم سرعان ما أخذوا فى الانسحاب ، وقد رأوا آلاف الذين سقطوا فى المعركة من الطرفين فى ثالث أيام المعركة . .

وعندما مالت الشمس نحو الغروب الحزين ، كان جنود المسلمين ينسحبون تاركين شهداءهم فى العراء . . بينما لم يستطع شارل مارتل متابعة المنسحبين خوفاً من أن يضيع هذا النصر الذى حققه ، لو تجمعت هذه الجموع الفارة من المسلمين من هول هذه المذبحة ، وقرروا العودة إلى الحرب والجهاد حتى الموت . .

آثر « شارل مارتل » أن يكتفى بهذا النصر الذى حققه ، ولم يغامر بالدخول إلى أرض أسبانيا والقضاء على الدولة الإسلامية فيها . . مؤثراً النتيجة التى وصل إليها فى الانتصار فى هذه المعركة التى أطلق عليها مؤرخو أوربا معركة « بلاط الشهداء » .

ولو نجح عبد الرحمن الغافقى واستطاع القضاء على جيش شارل مارتل لتغيرت صورة العالم الحديث ، ولدخلت معظم أوربا الإسلام . . ولكن كثيراً ما تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن كما يقولون . .

ومع ذلك فقد كانت هناك حملات إسلامية إلى وادى الرون ، واستطاعوا الاستيلاء على أفينيون وليون ، كما أن المؤرخين يقولون أن هناك بعض الحملات التى كانت تهدد بآريس

نفسها . . ولكن فى عام ٧٥٩ استطاع شارل مارتل أن يوقف زحفهم خلف جبال البرانس .

ولا شك أن المد الإسلامى الذى بدأ فى عصر الراشدين ثم زاد اندفاعه فى العصر الأموى ، جدت أمور فى داخل العالم الإسلامى عرقلت الفتوحات الإسلامية وأوقفت المد الإسلامى الكاسح ، فقد بدأت الإنقسامات المذهبية وظهرت على السطح الأحقاد التى كانت تغلى فى بعض النفوس ممن كانوا يرون فى بنى أمية مغتصبين للسلطة .

وهناك من يقول أن العباسيين أولى بالحكم كما أن هناك الخوارج الذين يرون أن الأمر ليس للهاشميين أو الأمويين ولكن الحاكمية لله . .

وكانت هناك الثورات الداخلية ، والحروب الأهلية ـ التى ستتعرض لها فيما بعد سبباً فى هذا الغروب الحزين للمسلمين وليس للإسلام . . وإذا كانت العديد من هذه الحروب الأهلية كالتى قادها الحسين بن على قد انتهت باستشهاده فى كربلاء . .

كما انتهت ثورة عبد الله بن الزبير فى الحجاز بموته هو الآخر . . واستطاع الأمويون أيضاً كبح جماح الخوارج . .

إلا أن هناك حركة العباسيين التى بدأت فى خلافة هشام على يد إبراهيم بن محمد ، وقد بدأت تهدد الحكم الأموى ، وخاصة عندما استطاع أبو مسلم الخراسانى وقد اتخذ شعاراً للعباسيين (العلم الأسود) أن يثبت الدعوة العباسية فى عاصمة خراسان ، والتف حوله الناس من الفرس والعرب الذين ضاقوا بالحكم الأموى ، ثم زحف نحو العراق ، ودخل الكوفة ، وبايع أبا العباس شقيق إبراهيم كأول خليفة للعباسيين !! . .

وعندما تنبه الخليفة الأموى مروان إلى هذا الخطر كان الزمام قد أفلت منه تماماً حيث منى جيشه بهزيمة ساحقة عام (٨٥٠ م) عند نهر الزاب ، ووجد أبو مسلم الطريق أمامه مفتوحاً إلى دمشق ، وهرب مروان إلى مصر . . بينما آل الحكم إلى العباسيين الذين أذاقوا الأمويين مر العذاب ، وألهبوهم سوط عذاب . . وتناسوا فى غمرة حماستهم للسلطة سماحة الإسلام ، وقاموا بتصفية حسابات قديمة . . وجرت الدماء . . ووسط هذه المذابح البشعة التى يرفضها الإسلام استطاع عبد الرحمن الداخل حفيد الخليفة هشام أن يهرب إلى أسبانيا حيث استطاع هناك أن يسيطر على الحكم ، ويكوّن حكماً أموياً قوياً فى الأندلس منافساً للحكم العباسى فى بغداد . .

وفى ظل الحكم العباسى فى الشرق ، والحكم الأموى فى الأندلس ظهرت قوة الإسلام وتألق من زاوية جديدة ، ليست هى التوسعات والفتوحات الباهرة ولكن فى مجال آخر ، وهو تألق الحضارة الإسلامية ، وتفوقها الذى ترك بصماته ليس على الحياة فى العالم الإسلامى فقط ، ولكن امتد لتظهر آثاره فى أوربا نفسها ، فقد أخرجها من ظلمات العصور الوسطى ، وأضاء لهم طريق

الحياة بما نقلوه عن العرب من حضارة الإغريق ، وما استفادوه من وهج الحضارة الإسلامية التى بلغت شأناً كبيراً فى مختلف مجالات التعليم والمعرفة ، وظهر علماء أفذاذ فى العالم الإسلامى فى مختلف المجالات . . وكل ذلك ساعد على ظهور الحضارة الحديثة فيما بعد فى أوربا ، بينما عاش العالم الإسلامى فى فترة الحكم العباسى وخاصة فى فتراته الأولى بأزهى عصور الازدهار الحضارى والتألق الفكرى ، وعمق النظر إلى أمور الحياة . .

قبل أن تتحول هذه الإمبراطورية الضخمة إلى دويلات ترتبط ارتباطاً شكلياً بالخلافة العباسية فى بغداد ، بينما يحكمها حكام أقوياء حينا وضعاف فى أحيان أخرى مما كان له أكبر الأثر فى مستقبل العالم الإسلامى ، وخاصة عندما تألبت عليه القوى الخارجية فيما بعد متمثلة فى هجوم التتار والمغول من جهة ، وبداية أطماع أوربا فى الشرق الإسلامى على يد الصليبيين من جهة أخرى . . ولهذا الضعف والاضمحلال أسباب سوف نتوقف عندها حتى نستفيد من أحداث التاريخ ، وحتى يمكننا أن نرى مستقبلنا على ضوء هذه التجارب التى مرت بها الأمة الإسلامية ، وهى ترتفع إلى القمة ، وهى تهوى إلى السفح . . وهى تقود العالم نحو حضارة عالمية وثقافية عملاقة بينما كانت أوربا تهبط إلى قاع التخلف والهمجية والضياع . .

وأمام وهج هذه الحضارة وتقدمها ، وازدهار العلم وانطلاق الفكر ، لم يجد المستشرقون الأوربيون سوى محاولة تشويه هذا التراث الإسلامى وأن يشككوا فى انطلاق الإسلام ، فزعموا أن الإسلام انتشر بحد السيف . . فهم يغمزون ويلمزون إذن . . وكأن الإسلام كعقيدة ليس بقدرته الانتشار لو لم يرغم المسلمون الناس على اعتناقه . . وهذه فرية لا تنطلى على أحد يعرف أبسط قواعد الإسلام . .

فلم يجبر الرسول أحداً على اتباعه ، سواء فى مكة وهو يشق طريقه بصعوبة وسط عقليات جاهلية متجمدة ، تعيش فى إسار الموروث الجاهلى . . والعادات الجاهلية ، والعقلية المتحجرة التى تعيش على ما كان يعيش عليه الآباء والأجداد حتى السجود للأصنام التى لا تنفع ولا تضر . . وتحت ضغط إرهاب مكة هاجر منهم من هاجر إلى الحبشة اتقاء لشرور أهل مكة ، وعندما جاء النبى منتصراً بعد فتح مكة لم يخير الناس بين الإسلام أو السيف بل قال لهم عندما سألهم :

- ماذا تظنون أنى فاعل بكم ؟

قالوا :

- أخ كريم وابن أخ كريم . .

قال لهم :

ـ اذهبوا فأنتم الطلقاء . .

ودخلوا الإسلام بإرادتهم لأن القرآن يقول : ﴿ **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى** ﴾ . .

وقد شرع الجهاد فى الإسلام كنوع من الدفاع عن النفس ، فليس من المعقول أن ينتظر المسلمون حتى يهاجمهم الأعداء فى بيوتهم . . ويتعرضوا لهلاك أنفسهم وأموالهم وأولادهم . . وأصبح الجهاد لإعلاء كلمة الله لقوله عليه الصلاة والسلام : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » . .

وكانت معارك المسلمين كلها فى أيام الرسول وفى ظل الخلافة الراشدة ، ثم فتوحاتهم بعد ذلك هو الجهاد ، حتى لا تتألب القوى الكبرى على المسلمين ، وتقضى عليهم وتطفىء نور الإسلام . . ومن هنا فقد استماتوا فى سبيل تحقيق انتشار الإسلام ، ولم تعد الحياة تعنى شيئاً بالنسبة للمسلم ما لم تكن هذه الحياة جديرة بأن يحياها الإنسان فى ظل عقيدة توفر له الأمن والأمان ، وراحة البال ، واليقين بأن ما عند الله لا يضيع . .

ويروى الرواة كيف أن أحد المجاهدين وقد استعد للقاء ربه يوم اليرموك قد ذهب إلى قائده أبى عبيدة بن الجراح وقال له :

ـ لقد تهيأت لأمرى ، فهل لك من حاجة إلى رسول الله ﷺ ؟ . .

قال : نعم . . تقرئه منى السلام وتقول له : يا رسول الله إنا قد وجدنا ما وعد ربنا حقاً . .

منتهى الإيمان . . والصدق والعزيمة . .

وهذا الإيمان جعلهم لا يبالون بكثرة عدد الأعداء . . ولو كانوا قد وضعوا فى حسابهم أنهم قلة وأعداءهم كثرة ، وأنهم لا يملكون السلاح الذى لا يكاد يذكر أمام أسلحة وعتاد عدوهم . . وبين فقرهم وثراء الأعداء ما تقدموا خطوة واحدة . . ولا استطاعوا أن يرفعوا سيفاً فى وجه أعداء دانت لهم الأرض . .

ومن هذا ما يرويه الرواة عندما قال رجل من نصارى العرب لخالد بن الوليد وهو فى العراق يتأهب لمعركة فاصلة مع الروم فى طريقه إلى الشام :

ـ ما أكثر الروم وأقل المسلمين . .

يومها نظر إليه خالد بقلب جسور وقال له :

ـ ويلك أتخوفنى بالروم . . إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال ، والله

لوددت أن الأشقر (فرسه) براء من توجّيه وأنهم أضعفوا العدد ، وكان فرسه كما جاء فى البداية والنهاية لابن كثير قد استنكىء من باطن حافره لكثرة ما صال به وجال فى ميادين القتال . .

وأمام ضعف أدلة من يقولون بأن الإسلام انتشر بحد السيف ، وجدنا من المستشرقين أنفسهم من دفع بهذه الفرية عن الإسلام . . منهم (توماس كارليل) فى كتابه « الأبطال وعبادة البطولة » يقول : إن اتهام محمد بن عبد الله بحمل الناس على الدخول فى دين الله الذى جاء به بالقوة والقهر قول سخيف لا يقبله عقل ، فكيف يمكن أن يتصور أن يرفع رجل فرد سيفه ليقتل به الناس أو ليستجيبوا إلى دعوته . .

ويورد لنا الكاتب الإسلامى عبد الحميد جوده السحار فى كتابه : (محمد رسول الله والذين معه) آراء القادة والمفكرين فى الشرق والغرب على السواء وهم يردون على فرية انتشار الإسلام بالسيف ، مفنداً هذه المزاعم :

« كان بودلى قائداً عسكرياً خاض غمار الحرب العالمية الأولى فراح يدافع عن حروب الإسلام بعقلية القائد ، يعيش الحروب التى خاضها المسلمون بالحروب التى شنها الأنبياء من قبل والشعوب ، ولم يحاول أن يجهد نفسه بالتعمق فى آيات القتال ليخرج بحقيقة لا جدال فيها ألا وهى أن محمداً ﷺ وصحبه ، ما سلوا سيفاً ولا شرعوا رمحاً إلا فى سبيل الدفاع عن النفس وتأمين الحرمات العامة للمسلمين ، والفقه الدولى الحديث يعتبر هذين النوعين من الحروب مشروعين دون غيرهما من حروب الفتح والغزو والبغى والعدوان » . .

حقيقة أن « بودلى » قد مس قيام المسلمين الأوائل للدفاع عن أنفسهم مسا رقيقاً ، ولكنه وهو القائد الذى عاش الحرب العالمية الأولى قد خلط بين الدنيا والدين . . فجعل الغنائم هدفاً من أهداف الحرب الإسلامية التى يسيل لها لعاب المسلمين ، ونسى أن الناس قد كرهوا القتال لما كتب عليهم لدفع عدوان الظالمين ، وأن الله تعالى قد خاطبهم بقوله : ﴿ **كتب عليكم القتال وهو كره لكم** ﴾ . .

كان المسلمون يقاتلون أقواماً بدوءهم بالقتال فكان لابد لهم أن يدفعوا الاعتداء بمثله ، وإلا فسدت الحياة فى الأرض ، وهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله . .

ويقول « جيمس متشز » فى مقاله (اخترت الدفاع عن الإسلام) :

« لم يحدث فى التاريخ أن انتشر دين بهذه السرعة ، فعند وفاة محمد ﷺ سنة (٦٣٢ م) كان الإسلام يحتل جانباً كبيراً من شبه الجزيرة العربية ، ولم يلبث بعد ذلك أن ضم إليها سوريا وبلاد الفرس ومصر والتخوم الجنوبية له وسيناء ، وامتد إلى شمال أفريقيا حتى بلغ مداخل أسبانيا ، وفى الزمن الذى جاء بعد ذلك كان تقدم الإسلام باهراً ، واعتقد الغرب أن توسع

الإسلام ، ما كان يمكن أن يتم لو لـم يعمد المسلمون إلى السيف ، ولكن الباحثين لم يقبلوا هذا الرأى ، فالقرآن صريح فى تأييده لحرية العقيدة . . والدليل قوى على أن الإسلام رحب بشعوب الأديان ما دام أهلها يحسنون المعاملة ويدفعون الجزية » . .

ويورد السحار رأى العقاد ، فى كتابه حقائق الإسلام وأباطيل خصومه الذى يقول فيه : « وشمول العقيدة الإسلامية هو الذى حقق للإسلام ما لم يتحقق لعقيدة غيره من تحويل الأمم العريقة التى تدين بالكتب المقدسة إلى الإيمان به عن طواعية واختيار كما آمنت به الأمم المسيحية والمجوسية والبوهيمية فى مصر وسوريا وفارس والهند والصين » . .

وقد عُزِى انتشار الإسلام فى صدر الدولة المحمدية إلى قوة السيف . . ما كان للإسلام يومئذ من سيف يصول به على أعدائه الأقوياء ، بل كان المسلمون هم ضحايا السيف وطرائد الغشم والجبروت . . وإن عدد المسلمين اليوم من أبناء الهند والصين وأندونسيا والقارة الإفريقية ليبلغ تسعة أعشار المسلمين فى العالم أجمع ، وما روى لنا التاريخ من أخبار الغزوات الدينية فى عامة هذه الأقطار ما يكفى لتحويل الآلاف المعدودة فضلاً عن مئات الملايين من دين إلى دين . .

ويقـول الأستـاذ المستشار على منصور فى كتابه (الشريعة الإسلامية والقانون العام) : « يذهب بعض كتاب القانون الدولى الأوربى وكثير من مؤرخيهم والمستشرقين منهم إلى أن محمداً هو الذى بدأ بالعدوان على قوافل قريش ، وتلفقوا بعض العبارات من كتب السيرة ، وبنوا عليها أن المسلمـين صادروا الكثير من قوافلها ، وعلى فرض صحة هذا القول - وهو ما لم أسلم به - أفلا يكون المسلمون على حق فى ذلك ما دمنا قد أثبتنا أنه عند هجرتهم كانت حالة الحرب قائمة بينهم وبين قريش ، أوليس القانون الدولى يبيح لمن يكون فى حالة حرب أن يغنم من خصمه ما يستطيع ، خصوصاً وقد علمنا أن ذلك الخصم أخرجهم من ديارهم وأموالهم وذريتهم ونسائهم بأن أكـرههم على ذلـك بالأذى والاعتـداء والحصـار وإعـلان حرب المقاطعة ، ثم قتلوا بعض المسلمـين ، واتفقوا على قتل نبيهم وهو ما لا خلاف عليه ، ولم يخبر أحداً من العرب والفرنجة إلا قال به ؟ . . ومع كون ذلك من حقوق المسلمين المشروعة فى كل شريعة وفى قواعد القانون الـدولى الحـديثـة ، إلا من يتتبـع الـوقـائع بإمعان فى كتب السيرة بعد أن ينقيها من الحواشى والتعليقات نجد الأمر على ما قلنا من أن المسلمين لم يبدأوا العدوان بل كانوا يردون الاعتداء بمثله » . .

ويورد السحار أيضاً رأى الإمام الشيخ محمود شلتوت أحد شيوخ الأزهر السابقين فى الآية التى أثارت كثيراً من اللبس بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ . .

فظاهر النص فيها يوحى بأن المسلمين أمروا بقتال جميع الكفار أينما كانوا سواء بدءوا بالعداء أو الحرب أم لا . .

ويرد فضيلة الأستاذ الأكبر هذا الزعم أيضاً بما معناه أن الآية جاءت إرشاداً للمسلمين بنوع من نظام الحرب وهو اليوم تكنيك الحرب . . وذلك أنهم إذا أرادوا حرب من بدءوهم بالحرب والعدوان من المشركين الذين أذنوا بقتالهم كافة ، فيجب أن يبدءوا بالحرب الأقرب حتى يخلو طريقهم ويأمنوا مفاجأة العدو من الخلف إن هم بدءوا بحرب الأبعد . . وهذه هى الطريقة المثلى فى الحروب العصرية أيضاً ، وهى ما تسمى بعدم ترك جيوب عدائية خلف الجيش الزاحف . .

وقد علق الأستاذ الأكبر على ما ذهب إليه الفقهاء من تفسير يخالف ذلك بقوله : « قد وقف بعض من يقصد الكيد للإسلام عند ظاهر الآية : ﴿ **قاتلوا الذين يلونكم من الكفار** ﴾ » . .

وزعم أن الدين الإسلامى أمر بقتال الكفار عامة سواء أحصل منهم اعتداء أم لم يحصل حتى يؤمنوا ويدينوا بالإسلام ، وقالوا : وقد استقر الحكم فى الشريعة على ذلك . . والواقع أن المراد من كلمة الكفار فى الآية ونظائرها المشركون المحاربون الذين قاتلوا الإسلام والمسلمين ، واعتدوا عليهم وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم ، ووقعوا فتنة للناس فى دينهم ، وهم الذين تُحَدِّثنا عن أخلاقهم الآية الأولى من سورة التوبة ، وكذلك المراد بكلمة « الناس » الواردة بحديث : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإن قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم » . .

فإن الذى يتوقف على ما ذكر فى الحديث هم مشركو العرب خاصة . . أما غيرهم فيكفى فى انتهاء قتالهم أن يعطوا الجزية ، وبهذا تتفق الآيات مع بعضها البعض ، ويجمع فيها بين الأحاديث ويسقط مثل ذلك الزعم الباطل . .

وانتهى الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت إلى إيجاز بحثه فى رسالته إلى الأمور الآتية :

١ ـ أنه لا توجد آية واحدة فى القرآن تدل أو تشير إلى أن القتال فى الإسلام قد فرض لحمل الناس على اعتناقه . .

٢ ـ أن سبب القتال ينحصر فى رد العدوان وحماية الدعوة وحرية الدين . .

٣ ـ أن الإسلام حينما شرع القتال نأى به عن الطمع والاستئثار وإذلال الضعفاء وابتغاه طريقا إلى السلام والاطمئنان ، وتركيز الحياة على موازين العدل والمساواة . .

٤ ـ وأن الجزية لم تكن عوضاً مالياً عن دم أو عقيدة ، وإنما هى دلالة الخضوع وكف الأذى والمشاركة فى حمل أعباء الدولة . .

وأضاف الأستاذ الأكبر أن ليس لأحد بعد هذا أن يفترى على الإسلام أو يسيىء فهم آيات القرآن ، فيزعم ما زعم الجاهلون من أن الإسلام قرر القتال طريقاً لدعوته ووسيلة للإيمان به ، وانتشرت تلك الدعوة على أساس من الضغط والجبر والإكراه .

وهكـذا نرى أن دعـاوى المستشرقـين بانتشـار الإسـلام بالسيف دعـوة ليست منـطقية ولا معقـولـة ، وقـد نفـاهـا أيضاً الذين درسوا الإسلام بموضوعية بعيدة عن الهوى من هؤلاء المستشرقين أنفسهم . .

فالإسلام دين حضارة وتقدم ومعرفة ، وليس دين إرهاب . . ودم . . وضحايا . . ومن هنا فقـد عاش الإسلام كل هذه القرون وسوف يظل عقيدة لكل من استنار قلبه وعقله إلى يوم الدين، بينما نرى الأنظمة الأخرى تتهافت وتتساقط بمجرد زوال القائمين عليها سواء بالموت . . أو لأنها لم تعد صالحة لزمان لاحق عليها . .

وخلاصة القول أن انتشار الإسلام هو تحقيق لعالمية الإسلام ، لأن الإسلام لم يأت للعرب ولكنه جاء للبشرية كلها ، لأنه خاتم الرسالات السماوية لقوله تعالى :

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ﴾ . .

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ . .

وقد أعجبنى ما كتبه الدكتور حسين فوزى النجار فى كتابه « الدولة والحكم فى الإسلام » فهـو يقـول بعد أن يستعرض حيثيات عالمية الإسلام ، وأن النبى جاءت دعوته لكل الشعوب ومختلف الأمم :

« فالإسلام دين الناس كافة ملة إبراهيم حنيفاً ، هى الحقيقة التى تقوم عليها دعوة عموم الرسالة ، أى أن الدعوة إلى الإسلام قائمة حتى يعم الإسلام الأرض جميعاً وهدى وبصيرة للناس أجمعين . . وهو ما حاول بعض المستشرقين أن ينكروها، إلا أن « توماس أرنولد» يرى فى كتب النبى إلى الملوك والأقيال « وإن رآهـا بعض من أرسلت إليهم ضرباً من الخرق ، إلا أن الأيام برهنت على أنها لم تكن صادرة عن حماسة جوفاء ، بل إنها لتدل دلالة واضحة صريحة على ما ذكر القرآن من دعوة الناس جميعاً إلى اعتناق الإسلام . . بل إنه ليزداد وضوحاً فى قول محمد متنبئاً أن بلالاً أول ثمار الحبشة ـ وأن صهيباً أول ثمار الروم ـ أما سلمان وهو أول من أسلم من الفرس ، فقد كان عبداً نصرانياً بالمدينة اعتنق الإسلام فى السنة الأولى من الهجرة » . .

وهكـذا صرح الرسـول ﷺ بكـل وضوح وجلاء أن الإسلام ليس مقصوراً على الجنس العربى ، قبل أن يدور بخلد العرب أى شىء يتعلق بحياة الفتح والغزو بزمن طويل . .

كما يرى « توماس أرنولد » أن الدعوة إلى الإسلام باقية حتى اليوم ، كما كانت من قبل ، وهو ما يراه سبباً لوضع كتابه (الدعوة إلى الإسلام) ولا تقوم الدعوة إلى الإسلام على إنكار ما سبق من دعوة الأنبياء والرسل ، والدلالة صريحة فى القرآن على أنه دين إبراهيم وموسى وعيسى ومن جاء قبلهم :

﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ . .
[سورة « غافر » آية رقم « ٧٨ »]

﴿ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً ﴾ . .
[سورة « الإسراء » آية رقم « ٧٧ »]

فالإسلام هو دين الله منذ بعث الله برسله إلى الأرض إلا أن رسالة محمد ﷺ وحدها هى التى جاءت للناس كافة . .

ويقول الدكتور النجار . . بعد أن يأتى بالآيات التى تدل على أن رسالة كل نبى سبق محمداً ﷺ كانت رسالة خاصة بقومه فقط . .

أما محمد فهو خاتم النبيين والمرسلين ، اكتملت فى دعوته رسالة السماء|وهو أول رسول بعثه الله للناس كافة ولم يبعثه ـ كما يقول الدكتور هيكل ـ إلى قومه وحدهم ليبين لهم . . وها قد انقضت كما يقول ـ أربعة عشر قرناً لم يقل أحد خلالها أنه نبى أو أنه رسول رب العالمين فصدقه الناس . . قام فى العالم أثناء هذه القرون رجال تسنموا ذروة العظمة فى غير ناحية من نواحى الحياة فلم يوهب أحدهم هبة النبوة والرسالة . . ومن قبل محمد كانت النبوات تنزل والرسل يتتابعون . . فينذر كلٌ قومه أنهم ضلوا ويردهم إلى الدين الحق . . ولا يقول أحدهم أنه أرسل للناس كافة ، أو أنه خاتم الأنبياء والمرسلين . .

أما محمد فيقولها فتصدق القرون كلامه ، وما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه وهدى ورحمة للعالمين . .

إذن لماذا هذه الفرية بأن الإسلام انتشر بحد السيف ؟

إن نوعاً من الحسد والحقد الذى أصيب به بعض أبناء الحضارة الغربية عندما رأى سرعة انتشار الإسلام كالبرق فى مختلف أرجاء الدنيا . . شرقاً وغرباً . . شمالاً وجنوباً . . بينما إيديولوجيات الغرب انتهت بسرعة البرق . .

ولم تصمد فلسفة من فلسفاتهم ، أو إيدويولوجية سياسة أو اجتماعية أو فلسفية لعامل الزمن، فأخذت وقتها ومضت ، بينما الإسلام ظل باقياً لأنه جاء بتشريع سماوى ، وليس بتشريعات بشرية يحتمل فيها الخطأ والصواب .

وقد أجاب الشيخ محمد متولى الشعراوى على هذا التساؤل : هل انتشر الإسلام بحد السيف ؟ فقال :

ـ هل انتشر الإسلام بالسيف ؟ :

إذن ، فقضية القوة فى الإسلام قضية موضوعة لمهمة ، إلا أننا فى آخر عهدنا قد وجهنا المهمة وجهة أخرى ، هذه الوجهة هى ما أراد أعداؤنا أن يقنعونا بها ، قالوا : إن الإسلام انتشر بالسيف ، فأحب المسلمون أن يردوا على ذلك ، فقالوا : إن الإسلام لم ينتشر بالسيف ، والسيف لم يستعمل فى الإسلام إلا دفاعاً عن النفس ، وبعد ذلك ، جاء المسلمون وأعجبتهم تلك الفكرة من أن الإسلام لم ينتشر بالسيف ، ولكنهم ما فطنوا إلى خبث هذه الدعوة . .

ـ خبث هذه الدعوة نشأ من ماذا ؟

نشأ من خوف خصوم الإسلام أن يحقق الإسلام المراد من وجوده فى الأرض ليظهر على الدين كله ، ومعنى « ليظهر على الدين كله » : أن مهمته إثبات الرشد للإنسانية كلها ، هم يريدون للإسلام أن يكتفى بالبقعة التى هو فيها ، ولا يفكر تفكيراً طموحياً فى أن ينساح ليجعل كلمة الله هى العليا ، فيقولون : الإسلام جاء للدفاع فقط ، وما دام قد جاء للدفاع فقط فليس له أن يتعدى سائر حدوده . .

تلك كلمة براقة ، تبرىء الإسلام من أنه انتشر بالسيف ولكنها تعوق الإسلام عن مده الذى أراده الله له ، لأن الإسلام ما جاء لينشىء أمة واحدة فى الأرض ، وإنما جاء ليعمم عدالة السماء فى الأرض كلها ولكنه لا يفرضها فرضاً . . إذن ، فما دام لا يفرضها فرضاً ، فماذا يكون الموقف . .

إنه إن فرضها فرضاً ـ بقوته ـ إن كان يملك قوة الفرض للعقائد ـ فإنه قد استولى على القوالب ، والإسلامَ لا يريد أن يستولى على قوالب بحكم ظاهر الأشياء ، ولكنه يحكم خفيات الأشياء ، فقصارى الأمر أن تملك القالب والشكل ، إن صاحب القالب والشكل يحاول ألَّا تراه منحرفاً عن منهج الحق ، فإذا ما جاء خَلا لَهُ الجو ، أو إذا استطاع أن يستتر بجرمه فإنه يفعله . .

ـ لمـــاذا ؟ . .

لأنك لم تملك قلبه ، وإنما ملكت قالبه . . إذن فقالبه هو موضوع الحساب والجزاء ، لذلك وضع الحق مبدأ فى انسياح الإسلام فقال : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾ . .

ما دام لا إكراه فى الدين ، فكيف تريد أن يمتد الإسلام إلى رقع أوسع ؟ . .

ـ يقـــول :

إنّ الذى يمنع منطق عدالة الإسلام هو قوى الطغيان فى الأرض ، فالإسلام حين ينشر مبادئه ويجد قوة من قوى الطغيان تحاول أن ترد المسلم عن قول دعوته وعن الدعوة إلى الله ، فلنا أن نقف أمام هذه القوة . . وأن ندكها دكا . .

وبعد ذلك نترك الناس أحراراً ليروا رأيهم بحرية وبمحض اختيار . . فلا فرض لعقيدة ، ولذلك نجد الإسلام حينما فتح بلداً من البلاد حمل كل أهله على أن يسلموا ؟ أم ظل فيهم مَنْ ظَلَّ على دينه ؟ . .

فلو أن الإسلام جاء لينشر بالسيف ، فإن معنى ذلك : أن كل بلد فتحه الإسلام كان لابد أن يسلم أهله ، ولكننا نجد كثيراً من البلاد المفتوحة ظل أهلها على دينهم ، ولا حرج عليهم إذن ، فماذا فعل الإسلام ؟

٩

الانقســـامــات

« يعتبر كل عربى نفسه أهلاً للحكم ، ولذا يندر أن تجد منهم من يذعن طواعية لسيطرة الآخرين » . .

[ابن خلـــدون]

□ ٩ □

الانقســـــامات

لا أحد يعرف بالضبط ما يمكن أن تكون عليه الفتوحات الإسلامية التى بدأت بخلافة الصديق ، لو لم تحدث هذه الانقسامات التى حدثت فى العالم الإسلامى . . فقد حدثت أحداث كبرى غيرت مسـار التاريخ ، وأوقفت عجلة الفتوحات لفترات من الزمن . . بدأت بمدعى النبوة ، ومانعى الزكاة . . واستطاع أبوبكر الصديق بسرعة مذهلة أن يسيطر على الموقف ويوحد كلمة الأمة . . فانشغلوا بالجهاد . . وحققوا إنجازات لم تكن تخطر على بال وهم يتصدون للفرس والروم دفعة واحدة . .

وفى عهد عمر واصلت الجيوش الإسلامية زحفها فى كل الميادين ، وظهر على ساحة معارك القتال أبطال وقادة . . برعوا فى فنون القتال . . وضربوا أروع أمثلة البطولة والبسالة ، وتساقط منهم آلاف الشهداء . .

وبينما المعارك بين المسلمين والأعداء على أشدها ، كان الخليفة عمر بن الخطاب يضرب أروع الأمثلة فى الزهد والتقشف ، رغم أنه آلت إليه وإلى خزانة المسلمين الأموال الطائلة التى غنمها العرب فى ميادين القتال . . وكلما ازدادت الثروات ازداد هو تقشفاً وورعاً . . وكلما اتسعت مجالات الانتصـار ازداد هو عدلاً وحرصاً على مصالح الرعية . . وكلما ازداد وهج الانتصارات الإسـلامية زاد الـرجـل تواضعـاً وحرصاً على وضع القوانين التى تنظم أمور الناس على أسس موضوعية ، متوسمة خطى الرسول الكريم ودستورها القرآن الكريم . .

وما كاد هذا الخليفة العظيم يرحل إلى أكرم جوار حتى جاء ذو النورين . . فكان فى بداية حكمه . . أو الفترة الأولى من حكمه مواصلة لما بدأه الشيخان . . وبزوغ القوة الإسلامية فى أعلى مناسيبها عندما حقق حلم المسلمين بتكوين أسطول إسلامى ، استطاع أن يهزم الرومان فى معركة ذات الصوارى ، ويحقق السيادة للعرب فى البحر المتوسط . . ثم سرعان ما اندلعت الفتنة الكبرى . .

تلك الفتنة التى كان لها أسباب كثيرة ، وروافد كثيرة . . تجمعت كلها لتحدث هذه الدوامة فى العالم الإسلامى ، وتعوق حركة الفتوحات . . وينشغل المسلمون بها . . وتحدث فرق كثيرة وآراء مختلفة نجم عنها حروب أهلية سال فيها دم المسلمين بيد المسلمين . . وأنهك المسلمون أنفسهم بأنفسهم . . وبدأت بوادر الحرب الأهلية الطاحنة وما نجم عنها من قتال المسلم لأخيه المسلم . .

وما دام هناك قتال ودماء وضحايا . . فلابد من تبريرات لما يحدث . . كل فريق يحاول أن يبرر موقفه . . وكل فريق يحاول أن يجد لموقفه ما يؤيده ، فاجترأ بعضهم حتى على تأليف الأحاديث التى نسبوها ظلماً وعدواناً للرسول عليه الصلاة والسلام . .

فلقد أقبلت الفتن كالليل المظلم . . وبدأت صفحات التاريخ الإسلامى تتلطخ بالدماء . .

قالوا فيما قالوا أن عثمان آثر أقاربه فى الحكم . . وأنه ولى أناساً ليس لهم كفاءة من ولاهم الشيخان .

وقالوا إنه وضع بنى أمية فوق رقاب العباد . .

وقالوا . . وقالوا . . ونسوا فى الفتنة تاريخاً طويلاً عريضاً لعثمان رضى الله عنه . .

وقد كان بعض ما قيل عن عثمان صحيحاً إلى حد كبير حتى أننا نرى الإمام السيوطى يقول عن هذه الفتنة وتطورها . . وما انتهت إليه من استشهاد ثالث الخلفاء الراشدين : « قتل عثمان مظلوماً . . ومن قتله كان ظالماً ومن خذله كان معذوراً » . .

فالإمام لم يكن يستحق القتل . .

ومن خذله ولم يقف بجانبه كان عنده مبررات لذلك . . إنها الفتنة . .

وعندما تولى الخلافة على بن أبى طالب بعد أن سيطر الثوار على مدينة رسول الله ﷺ ، وعمت الفوضى ، وأصبح الحكم فى أيديهم . . كان الموقف فى غاية الصعوبة . . فبينما كان الثوار يحكمون سيطرتهم على المدينة ، وقف البعض ضد مبايعة الإمام على بحجة أنه لم يأخذ بثأر عثمان . . !

ولم يسألوا أنفسهم كيف يقتاد من قتلة عثمان ، والثوار يسيطرون على المدينة . . وربما سألوا أنفسهم وعرفوا أنه من المحال الثأر فى ظل هذه الظروف من قتلة عثمان ، ولكنهم وجدوا الحجة حتى لا يبايعوا علياً بالخلافة . .

وتوالت المحن . . فعائشة كانت بمكة ، وجاء خبر تولية على الخلافة فثارت ودعت الناس للطلب بدم عثمان . . وهى التى كانت كارهة لحكم عثمان من قبل . .

ويقول الرواة أنه جاءها وهى بمكة رسالة من طلحة والزبير : « إنه خذلنى الناس عن بيعة على وأظهرنى الطلب بدم عثمان » . .

ويقول الرواة أن عائشة طلبت من أم المؤمنين أم سلمة وكانت هى الأخرى بمكة الخروج للطلب بدم عثمان فقالت لها : « يا بنت أبى أمية ، أنت أول مهاجرة من أزواج رسول الله وأنت كبيرة أمهات المؤمنين . . وأنت . . وأنت . . » . .

فقالت أم سلمة : « ما لأمر قلت هذه المقالة » . .

فقالت عائشة : « إن عبد الله بن الزبير أخبرنى أن القوم استتابوا عثمان ، فلما تاب قتلوه صائماً فى شهر حرام ، وقد عزمت على الخروج إلى البصرة ومعى الزبير وطلحة فاخرجى معنا لعل الله يصلح هذا الأمر على أيدينا » . .

فقالت أم سلمة : « إنك كنت بالأمس تحرضين على عثمان ، وتقولين فيه أخبث القول ، وإنك لتعرفين منزلة (على) عند رسول الله ﷺ . . فأى خروج تخرجين بعد هذا ؟ » . .

فقالت عائشة : « إنما أخرج للإصلاح بين الناس ، وأرجو فيه الأجر إن شاء الله » .

فقالت أم سلمة « أنت ورأيك » . .

وقد أرسلت أم سلمة ما دار بينها وبين عائشة إلى على بن أبى طالب .

وقد خرجت أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة وما أكثر الروايات التى قيلت حول معركة الجمل . . ولكن لا خلاف أن الإمام على لم يكن يريد إراقة دماء . . ولا كان يريد ضحايا . . ولا أراد الفتنة . . بل إنه عندما كان لا مفر من القتال ، قد حاول كثيراً أن يثنى عائشة وطلحة والزبير عن المعركة التى ليس من ورائها إلا سفك دماء المسلمين بلا جدوى . . لقد وقف وقد أرغم على القتال ليقول لأتباعه :

ـ لا ترموا بسهم ، ولا تطعنوا برمح ، ولا تضربوا بسيف .

إن علياً رفض أن يكون هو البادىء بالقتال ، وهناك رواية تقول أن الإمام قبيل المعركة نادى الزبير وقال له :

ـ إنما دعوتك لأذكرك حديثاً . . . قال لك ولى . . . رسول الله ﷺ . . أتذكر يوم رآك وأنت معتنقى فقال لك : أتحبه ؟

قلت : ومالى لا أحبه وهو أخى وابن خالى . .

فقال الرسول :

ـ أما إنك ستحاربه وأنت ظالم له . .

فــرد الزبــير :

ـ أذكرتنى ما أنسانيه الدهر . .

وعاد الزبير وقرر ألا يدخل هذه المعركة إلا أن ابنه عبد الله قال له :

ـ ما أراك إلا جبنت عن سيوف بنى عبد المطلب . .

فقال له والده :

ـ ويلك أتهيجنى على حربه ، ألا إنى قد حلفت ألا أحاربه . .

وانصرف الزبير من ميدان القتال بعد أن تذكر حديث رسول الله ﷺ أنه سوف يقاتل علياً وهو ظالم له ، وما كان من رجل يدعى عمر بن جرموز ، إلا أن سار بجانبه ، وعندما رآه قد نزل من حصانه للصلاة هاجمه ، وقتله وهو يصلى . .

ولما علم الإمام بمقتل الزبير بكى وقال : « والله ما كان ابن صفية جباناً ولا لئيماً ، ولكن الحين ومصارع السوء » . .

وعندما رأى سيف الزبير قال :

ـ سيف طالما جلىَّ به الكرب عن وجه رسول الله . .

وعندما طلب القاتل ابن جرموز جائزة ما اقترفت يداه ، قال له على :

ـ أما إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بشر قاتل بن صفية بالنار » . .

وقد كانت معركة الجمل معركة قاسية وشرسة ، قتل فيها الزبير كما قتل طلحة . .

وقتل فى هذه المعركة على اختلاف الروايات أكثر من عشرة آلاف مسلم .

وقد ترك الإمام عائشة تعود إلى مكة فى رعاية أخيها محمد بن أبى بكر الذى كان فى صفوف على . .

ويقول الرواة أن علياً سألها بعد المعركة :

ـ كيف أنت يا أمه ؟

قالت :

ـ بخير . .

قـال :

ـ يغفر الله لك . .

قالت :

ـ ولـــك . .

وقـد شعـرت عائشة بمرارة لما حدث من دماء المسلمين التى سالت بلا مرر . . وكانت تقول : « ليتنى مت قبل يوم الجمل » . .

وكانت الموقعة يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٦ . .

ولم تكن معركة « الجمل » هى آخر معركة يراق فيها دم المسلم بيد المسلم ، بل قالت على حد تعبير الأستاذ الخضرى : « لم تكن واقعة الجمل على شدة هولها وفظاعة أمرها إلا مقدمة لما هو أشد منها هولاً وأفظع أمراً وهى الحرب فى (صفين) » . .

بعد المعركة انصرف الإمام من البصرة إلى الكوفة ، وتوالت الأحداث . . واحتدم الصراع بين على ومعاوية . . وكانت معركة « صفين » بين على وجنوده من أهل العراق ، ومعاوية وجنوده من أهل الشام ، ولما رأى عمرو بن العاص أن النصر سيكون من نصيب الإمام طلب من معاوية أن يأمر بأن يرفع جنوده المصاحف على أسنة الرماح ، تحكيماً لكتاب الله . . وكان الهدف من وراء ذلك هو إيجاد « هدنة » للاستعداد لمعركة جديدة . .

ورغم أن الإمام كان يعرف تماماً أن هذه خدعة إلا أن أتباعه الذين كانوا يناقشونه فى كل صغيرة وكبيرة ، على عكس جيش معاوية الذين كانوا أطوع من خاتمه فى يده ـ كما يقولون ـ . . أمام ضغط جنود علىّ قبل على التحكيم ، وكان الكتاب الذى عقد بين الطرفين فى ١٥ صفر سنة ٣٧ هـ ، وروى الطبرى أن ذلك كان فى ١٣ صفر . .

ويعلق على هذا الأستاذ الخضرى بقوله :

« وبهذا العقد انتهت واقعة صفين التى قتل فيها من شجعان المسلمين تسعون ألفاً ، وهو عدد لم يذهب مثله ولا قريب منه فى جميع الوقائع الإسلامية من لدن رسول الله ﷺ إلى تاريخها ، ولولا أن عقـدتهم الحرب ، ولفحتهم نيران السلاح لاستؤصلت البقية الباقية وضاعت الثغور ، ومما يزيد الأسف أن هذه الحرب لم يكن المراد منها الوصول إلى نشر مبدأ دينى ، أورفع حيف حل بالأمة ، وإنما كان لنصرة شخص على شخص ، فشيعة على تنصره لأنه ابن عم الرسول ﷺ وأحق

الناس بولاية الأمة . . وشيعة معاوية تنصره لأنه ولى عثمان وأحق الناس بطلب دمه المسفوك ظلماً ، ولا يرون أنه ينبغى لهم مبايعة من آوى إليه قتلته » .

إن تهالك كلا الرجلين على ما يزعمه له حقاً كان بالغاً أقصى نهايته . . فكل منهما يريد بلوغ أربه من الآخر بأى ثمن مهما غلا . . إن من عنده ذرة من الشفقة ليذوب قلبه على هذه الأمة رحمة وأسى ، فقد وجدت بين عاملين يتنازعانها ويقربان أبناءها بعضهم ببعض ، ويسيلان دماءها أنهاراً ولا تحدث واحداً منهما نفسه بأنه لا يصل إلى ما يريد إلا على جسر من الجثث يزيد على عشرات الألوف من موافقيه ومخالفيه هم عدة الإسلام وعزته وقوته . . بهم أعلى الله كلمته ، وأعز ناصره ، وليس من الكياسة أن يهلك مثلهم حتفه فى أمر إن وقع لا يرتفع له ميزان الدين ولا ينخفض .

ولو كان الرجلان ممن لا توبة لهما وليس لهما فى الدين قدم وحسن بلاء لكان للقلم مجال بالمحل الرفيع والمكان المكين ، وبخاصة على بن أبى طالب وأثره فى الدين وإعزازه ، فليس لنا أن نأسى على ما كان ، ونكل أمر صاحبى العمل إلى الله عز وجل ، ونسأله لهما الصفح والغفران .

ونحن نعرف بعد ذلك أن نتيجة التحكيم كانت فى صالح معاوية . . فبينما وافق أبو موسى الأشعرى (عن على) أن يخلع على بعد أن اتفق مع عمرو بن العاص (مندوب معاوية) أن يخلع كل منهما صاحبه ، ويتركوا الأمر شورى للمسلمين لاختيار خليفة لهم . . قام عمرو بن العاص ليعلن تثبيته لمعاوية وخلعه لعلى . .

وقرر على معاودة القتال ، غير أن هناك من لم يعجبه « التحكيم » بل لام الإمام على قبوله مبدأ التحكيم ، وأن قبوله هذا المبدأ معناه أنه لم يكن واثقاً من صحة بيعته . . مع أنهم هم الذين أرغموه على التحكيم . . وكان هؤلاء هم يسمون فى التاريخ باسم « الخوارج » . . الذين نادوا بأنه لا حكم إلا لله . .

وأراد الإمام أن يوضح للناس فى الكوفة طبيعة الأحداث ويلقى الضوء ويبين لهم حقيقة الخوارج فقال :

« الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجليل ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . . أما بعد : فإن المعصية تورث الحسرة وتعقب الندم ، وقد كنت أمرتكم فى هذين الرجلين وفى هذه الحكومة أمرى ونحلتكم رأيى لو كان لقصير أمر ، ولكن أبيتم إلا ما أردتم فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى
فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

فلما عصوني كنت منهم وقد أرى
مكان الهدى أو أنني غير مهتد
وهل أنا إلا من غزية إن غوت
غويت وإن ترشد غزية أرشد

ألا وإن هذين الرجلين اللذين اخترتموها حكمين قد نبذا القرآن وراء ظهورهما وأحييا ما أمات القرآن ، واتبع كل منهما هواه بغير هدى من الله ، فحكما بغير حجة بينة ، ولا سنة ماضية ، واختلفا في حكمهما وكلاهما لم يرشد فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين ، استعدوا وتأهبوا للسير إلى الشام وأصبحوا في معسكركم إن شاء الله » . .

ومرت الشهور . . فإذا بالإمام يضيق ذرعاً بأتباعه الذين يجادلونه في كل شيء ، ولا يسمعون ما يأمرهم به ، حتى أنه قال وهو يتوجه إلى الله بأحزان نفسه : « اللهم إني سألتهم ما فيه فمنعوني . . اللهم إني قد مللتهم وملوني . . وأبغضتهم وأبغضوني . . وحملوني على غير خلقي . . وعلى أخلاق لم تكن تعرف لي ، فأبدلني بهم خيراً لي منهم . وأبدلهم بي شراً مني . . وبث قلوبهم بث الملح في الماء » . .

عاش الإمام طوال خلافته لم يهدأ له بال ، لم يخرج من معركة إلا لمعركة . . ولا من حزن إلا إلى حزن ، حتى إنه كان يقول : « ما يؤخر أشقاها » . .

وأشقاها هذا هو الذي تنبأ الرسول عليه الصلاة والسلام بمصرع الإمام على يديه ، فقد قال لعلي ذات يوم : « أتعلم من أشقى الناس » ؟

وسكت علي ، وقال الرسول ﷺ : « الذي يضربك على هذه (جبهته) فتخضب هذه بالدم . . (وأشار إلى لحيته) » . .

وتمضي الأيام . . ويقول بعض الرواة أنه رأى الرسول عليه الصلاة والسلام في ليلة استشهاده ، لقد هرع إلى الرسول الكريم يشكو حزنه وما يلاقيه من الناس ، فمسح الرسول ﷺ على رأسه وقال له : « ادع الله أن يريحك منهم » . .

ويدعو علي ، ويستشهد في اليوم التالي على يد أحد الخوارج (عبد الرحمن بن ملجم) . .

بعد استشهاده آل الحكم إلى معاوية . . وتحول الحكم إلى ملك عضوض . . وخاصة بعد أن تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية حقناً لدماء المسلمين على أن يصبح الأمر شورى بعده . . ولكنه لم يحدث . . فقد أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد ، ولم تحقن الدماء . .

ولم تنته الحرب الأهلية بين المسلمين في العصر الأموي . . فقد ثار الإمام الحسين على حكم بني أمية في عهد يزيد بن معاوية . .

فقـد خرج نحـو كربـلاء تلبية لنـداء أهل العراق الذين أرسلوا إليه مبايعين . . ولكنهم خذلوه ، وحوصر فى « كربلاء » . . حيث استشهد فى معركة تعتبر من أفجع المعارك التى عرفها التاريخ الإسلامى ، فلم يتورع قتلته من التمثيل به ، ولم يراعوا أنه حفيد نبيهم . . ونسوا قوله تعالى فى آل بيت المصطفى عليه الصلاة والسلام : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ . .

ونسوا أنه عندما نزلت الآية الكريمة : ﴿ قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ﴾ . .

دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة والحسن والحسين وقال : « اللهم هؤلاء أهلى » . .

وفى هذه المعركة غير المتكافئة بين الحسين وآل بيته ، وبين جيش يزيد بن معاوية استشهد الإمام الحسين ، وكانت شجاعته فى هذه المعركة مضرب الأمثال . . فهو مثلا يرى جزع أخته السيدة زينب أثناء الحصار . . ويسمعها تقول :

ـ واثكلاه . . ليت الموت أعدمنى الحياة ، اليوم ماتت فاطمة أمى ، وعلى أبى ، وحسن أخى . .

فقال لها الحسين برباطة جأشه المعهودة :

ـ يا أختيه لا يذهبن بحلمك الشيطان . .

وعندما استشهد الإمام ، ذاعت الفجيعة فى أنحاء العالم الإسلامى فقد قتل من أصحاب الحسين اثنان وسبعون رجلاً ، وقتل من أعدائه ثمانية وثمانون رجلا . . وأصبح حديث الناس فى كل مكان تلك الجريمة البشعة التى ارتكبها الحكم الأموى فى عهد يزيد بن معاوية . .

وكانت هذه الحادثة سبباً فى استياء الناس من هؤلاء الذين لا يرعون حرمة بيت الرسول نفسه . . فزاد السخط على الحكم الأموى .

ولم تكن دماء الحسين آخر الدماء التى أريقت بيد أبناء دينه . .

لقد حمل راية المعارضة عبد الله بن الزبير . . وهو واحد من أبطال الإسلام ، كان له دور كبير فى الفتوحات الإسلامية فى عهد عثمان أثناء فتوحات الشمال الإفريقى . . وقرر وضع حد لطغيان يزيد بعد مقتل الإمام الحسين ، وقد كان الناس بين عبد الله بن الزبير وشخصيته وكفاحه فى سبيل دينه ، وبين يزيد المستهتر الذى أخذ الخلافة عنوة وبقوة السيف ، فإذا به يعلن الثورة ويستقل بالحجاز ، ويبايعه أهل مصر وخراسان وحمص وأجزاء من اليمن . . وكاد أن يثبت أركان حكمه بعد أن هزم جيش الشام القادم للقضاء عليه بقيادة سليم بن عقبة المرسى بعد أن خارت قواه أثناء مجابهته لجيش ابن الزبير وخاصة بعد أن علم بموت يزيد . . وكان مسلم بن عتبة قد

عبث بالمدينة وأرهق أهلها ، ولم يرع حرمة مدينة رسول الله ﷺ والأنصار . . إلا أن الأيام قلبت له ظهرها . . فقد ثار عليه الخوارج ، فى الوقت الذى صمم فيه الخليفة عبد الملك بن مروان أن يقضى على ابن الزبير مهما كان الثمن ، وأن يعيد الأمة الإسلامية لتخضع لراية واحدة تحت الحكم الأموى . .

وبدأت نذر الهزيمة عندما تمكن جيش بن عبد الملك أن يهزم مصعب بن الزبير فى البصرة ، ثم يتقدم قائده الحجاج بن يوسف الثقفى ليضرب الكعبة بالمنجنيق ، ويحاصر عبد الله الذى قاتل بشرف . . ومات بشرف . . وردد الناس كلمات أمه (أسماء بنت أبى بكر) إلى ابنها . . وهى تحثه على الشهادة ، عندما قال لأمه : « أخاف أن يمثل القوم بى » . . فقالت له : « لا يضر الشاة سلخها بعد ذبحها » . .

ويتمكن الأمويون من السيطرة على الحكم . . ثم الاندفاع بعد أن وحدوا الصف العربى إلى الفتوحات التى كانت كما رأينا ـ كاسحة عاتية ـ اندفعت كالسيل لتضم بلدانا ما كانت تخطر على بال أحد أن تكون داخل الحدود الإسلامية ، فضمت مصر والشمال الإفريقى وأسبانيا غرباً ، إلى الهند وحدود الصين وجنوب الاتحاد السوفييتى شرقاً .

ولكن الدماء العربية التى تراق بأيد عربية لم تتوقف ، فما حدث من انقسامات فى العالم الإسلامى ، والروافد الكثيرة التى مهدت للقضاء على دولة بنى أمية قد أثمرت ثمارها . . فسقطت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية . .

والغريب فى الأمر أنه حين آل الحكم إلى بنى العباس ، وتولى الحكم أبو العباس عبد الله ابن محمد بن على ، الذى لقب بالسفاح لكثرة ما سفك من دماء ، فقد كان متعطشاً للدماء ، ولم يشفع عنده أن الأمويين قد جاءوا إليه يلتمسون العفو عما سلف . . فإذا به ينسى أن الإسلام من شيمته التسامح والعفو . .

﴿ خذ العفو وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين ﴾ . .

﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ . .

وأن من تعاليم الإسلام الرحمة ، ونسيان الإساءة :

﴿ وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ﴾ . .

[سورة « التغابن »]

كما تناسى أيضاً ، وقد أغرته السلطة والسلطان ، أن هؤلاء الذين سفك دمهم ، قد قدموا للإسلام خدمات جليلة عندما حققوا الفتوحات الإسلامية الكبرى ، وإذا كان لهم أخطاء ،

ومحاربتهم الهاشميين وسفك دماء بعضهم بعض . . فإن الخطأ لا يعالج بالخطأ ، فقد جاء بنو أمية إليه مستعطفين لا حول لهم ولا قوة . . يذكرونه بصلة الدم والرحم ، ولكنه صم أذنيه عن كل هذا ، وقام بمجزرة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً ، فقد قتل الأحياء منهم ، ومثل بجثث من ماتوا . .

ولندع المحقق الكبير إبراهيم الابيارى فى كتابه (قيام دولة) وهو يصف لنا مشهداً من هذه المشاهد التى تعتبر بقعة سوداء فى صفحة التاريخ الإسلامى الأبيض ، ولنتساءل : لماذا حدث ما حدث ؟ لأن ما حدث ليس مجرد أحداث حدثت ثم اختفت فى سراديب التاريخ ، ولكن الذى حدث ترك بصماته ونتج عنها أفكار وآراء متطرفة تركت بصماتها على مختلف عصور التاريخ حتى يومنا هذا . .

يقول لنا الأستاذ إبراهيم الابيارى : « يروى الرواة مجمعين أن أبا العباس دعا بالغداء ، حين قتل هؤلاء الأشراف ، الذين كانوا تسعين رجلاً ، وأمر ببساط فبسط عليهم وجلس فوقهم يأكل وهم يضطربون تحته . .

فلما فرغ من الأكل قال : ما أعلمنى أكلت أكلة قط أهنأ ولا أطيب لنفسى منها . .

ثم لما فرغ من هذه قال :

ـ جروا أرجلهم فألقوهم فى الطريق يلعنهم الناس أمواتاً كما لعنوهم أحياء . .

ويقول الراوى ، ولم يكن بعيداً عن هذا كله : فرأيت الكلاب تجر بأرجلهم وعليهم سراويل المشى حتى أنتنوا ، ثم حفرت لهم بئر فألقوا فيها .

ويقول غيره :

ـ ولم يكن بعيداً عن هذا كله هو الآخر ، لقد صلبوا فى بستانه حتى تأذى جلساؤه بروائحهم ، فكلموه فى ذلك فقال : « والله لهذا ألذ عندى من شم المسك والعنبر » . .

وإنا لنعلم النفوس السليمة تنتهى ثورتها عند النيل ممن أحفظها حين يشتد بها الغضب ولا تملك أن تحزم أمورها ، ونعلم النفوس المريضة تخرج بها الثورة إلى ما بعد النَّيْل إلى مثل ما خرجت إليه نفس أبى العباس من هذا الشطط المؤذى للإنسان والإنسانية عامة ، ثم للإنسانية الإسلامية خاصة . .

ولقد مرضت نفس أبى العباس مرضاً متصلاً ، لم يشفها منه هذا الذى كان من قتل تسعين رجلاً نشدوا الأمن فى جواره ، فلم يشفها منه قتل سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وهو مستوثق منه بحرمة الضيافة ، بل لقد فشا هذا المرض فى نفس أبى العباس كلها ، فإذا هو مريض كله

لا مكـان للسلامة من نفسه ، يأمر بنبش قبور بنى أمية بدمشق ، فينبشون قبر معاوية بن أبى سفيان ، بعد ما يربى على نصف قرن من موته ، فلا يجدون فيه إلا هباء . .

ويأمر بنبش قبر يزيد بن معاوية ، بعد ما يربى على نصف قرن من موته ، فلا يجدون فيه إلا حطاماً كالدمار . .

ويأمـر بنبش قبر عبد الملك بن مروان ، بعد نـحو نصـف قرن من موته فيجدون فيه جمجمة ، ويأمر بنبش قبور الخلفاء جميعاً فلا يجدون فى القبور إلا العضو بعد العضو ، غير هشام ابن عبد الملك ، فقد وجدوه صحيحاً فى قبره لم تنل منه إلا أرنبة أنفه . .

وهنا أحب أن تسمع معى لما يرويه الرواة ، يقولون : « إنه ما كاد يظفر بتلك الجثة كاملة حتى أمر من يضربها بالسياط ثم أمر بها فصلبت ، ثم أمر بها فحرقت ، ثم أمر بها فذريت فى الريح » . .

ولقـد اقترفت أيدى الأمويين شيئاً من هذا الإثم وذاك التنكيل ولكنهم اقترفوه ليرهبوا به الثائرين من حولهم ، فمضوا مع عذر يقوم لهم بحجة .

ولكن أبا العباس اقترفها وليس بين يديه عذر يقوم له بحجة ، ليس بين يديه ثائرون أو شبه ثائرين يرهبهم ، ولكنه يطفىء ثائرة نفسه وثائرة غيظه . .

وهكـذا تبـع أبـو العبـاس بنى أمية أولاد الخلفـاء وغيرهم ، فلم يفلت منهم إلا رضيع أو هارب ، واستصفى أموالهم كلها غنيمة سائغة له ، وإذا هو بعد هذا طيب النفس قرير العين ينشد :

بنـى أمـية قد أفـنـيت جمعـكـم
فكـيف لى منـكـم بالأول المـاضـى
يطيب الـنـفس أن الـنـار تجمـعـكـم
عوضـتُـم من لظاهـا شر معـتـاض
منـيتـم لا أقـال الله عثـرتـكـم
بليث غاب إلى الأعـداء نهاض

وكأنى بهذا السفاح المريض النفس كان بحاجة إلى من يفثأ غضبه ويسكن مرضه ، فيرده إلى شىء من الهدوء والسلامة ، وكأنى بهذا السفاح المريض لو رزق هذا الفائىء وذلك المسكن لمرت حياته دون أن تشيع تلك الأوزار الثقال . .

وكأنى بالناظرين فى أمر الناس من آل أبى العباس ممن لم يؤمنوا إيمانه بتلك القسوة المبيدة . .

وذلك الشر المفسد ، عاشوا إلى جنب أبى العباس أول الأمر يخافون أن يصدوه حتى لا يظن بهم الظنون فلم يجبوا منه نفس أبى العباس ، ولكنهم لما وجدوه قد أربى على ما يجيزون لم يجيزوه على ما يفعل ، ولكنهم ظلوا ينتظرون ، فلقد كانت نفس أبى العباس ألصق بالداعين إلى الشر ، وكانت نفس أبى العباس لما ترْو بعدُ ظمأها من هذا الشر . . ولكن هذه النفس ما لبثت أن فقدت هؤلاء الداعين شيئاً ما ، ثم ما لبثت أن رويت شيئاً ما ، فإذا هى بعد هذا وذاك هدأت شيئاً ما ، وإذا المحبون للأمن من آل أبى العباس يدون سعة لأن يقولوا فقالوا .

ترى ماذا سيكون عليه العالم الإسلامى الآن لو لم تحدث هذه الانقسامات التى مزقت الجسد الإسلامى ، وأوهنت قواه وهو فى ذروة مجده وانتصاراته ، ثم أصبحت هذه الانقسامات كالمرض الذى استشرى شيئاً فشيئاً حتى استطاع فى النهاية أن يحول الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس إلى دويلات لم تلبث أن شدت إليها أطماع من كانوا يرتعدون من قوتها ومهابتها . . وهبت عليها رياح التغيير فإذا بالمسلمين الذين أعزهم الإسلام قد غفوا إغفاءة التخلف ، وإذا بوهج الحضارة التى غزت القلوب والعقول قد أخذ مشعلها غيرهم فى أوربا . . وإذا بهم وقد تحولوا إلى لقمة سائغة فى يد أعدائهم . . لقد كان سر قوتهم هو مبادىء الدين الحنيف . . فإذا بالمسلمين وقد ارتفعوا بالإسلام ينسون فى فترات طويلة ما انطوى عليه الإسلام من قيم ومبادىء صاغت المسلم فجعلته جديراً بأن يعيش فى دنياه راهباً بالليل . . فارسا بالنهار . . ولكن عندما نسى رحيق الإسلام وأغواه الترف والطمع . . ضعف ووهن وتخلف . . أو على حد تعبير الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه « الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة » :

« ظلت الإمبراطورية الإسلامية قائمة قوية ما جعلت هذه الرسالة الإنسانية السامية غايتها . . ولقد كانت موشكة أن تنشىء على أساس هذه الرسالة دولة عالمية تنتظم ذلك العهد جميعاً ، لكن دورة الفلك دارت ، فإذا الحرية انقلبت جموداً ، وإذا الإخاء والمساواة يذبلان أمام سلطان الباطشين من الحكام المستبدين » . .

عند ذلك بدأ تدهور الإمبراطورية وانحلالها ولم يكن ذلك عجباً والحياة الإنسانية فكرة ورسالة وليست أداة يوجهها من يشاء إلى ما شاء ، والحياة الإنسانية القائمة على الفكرة مثمرة دائماً ، موجهة أبناءهاجميعاً إلى ألوان من النشاط يزيدها قوة وتدفع إليها كل يوم حيوية جديدة . .

فإذا انطفأ نور الفكرة لم يبق للرسالة وجود ، وآن لهذه الحياة الإنسانية أن يتوارى كل منها وما فيها من الضياء فلا يبقى منها إلا المظهر المادى أو المظهر الحيوانى للوجود . .

ولا قيام لإمبراطورية على أساس من المادة ولا من المظهر الحيوانى . . ولذلك انحلت الإمبراطورية الإسلامية لأن الرسالة التى آمن بها المسلمون الأولون توارت وراء الحجب . . أفقدر لها أن تنبعث من جديد ؟ ذلك ما أعتقده وعلمه عند ربى .

لقد كان أفول الحضارة الإسلامية ، واضمحلال هذه الإمبراطورية الإسلامية الضخمة ، وتهاوى قلاعها تحت وطأة ضعف الحكام ، والترف الذى عاشوا فيه ، والفساد الذى عشش فى بلاط الخلفاء والحكام ، ونسيان أبسط مبادىء الدين الحنيف . . فماتت النخوة فى النفوس ، وعشش (السوس) فى أعمدة الحكم . . فانهار عندما اندفعت نحوه قوات الأعداء . . وسقطت بغداد نفسها وهى عاصمة الخلافة العباسية تحت سنابك خيول التتار ، ولولا وقفة مصر الخالدة أمام زحفهم وإلحاق الهزيمة بهم لتغير وجه التاريخ . .

١٠

تألق الحضارة الاسلامية

* ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ . .

* ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ . .

[قرآن كريم]

* « العلماء ورثة الأنبياء » . .

[حديث شريف]

□ ١٠ □

تألق الحضارة الاسلامية

انطلقت دعوة الإسلام فى مختلف أنحاء العالم يحملها المسلمون ، وقد أصبحت لهم شخصية صاغها الإسلام صياغة جديدة ، فأصبحت لهم نظرتهم للحياة ، وأصبحت لهم نظرتهم إلى يوم الميعاد . . وتعلموا أن دينهم جاء بتعاليم وقيم ، ومبادىء وشريعة . . وأن هناك مجالات على المؤمن أن يؤمن بها إيماناً مطلقاً ، وهى الإيمان بالله ورسله وملائكته ويوم القيامة ، والقدر خيره وشره ، وكل ما يتعلق بأمور الغيب الذى أمره القرآن الكريم والسنة النبوية بالإيمان بها . . وأن فى دينه ثوابت ومتغيرات . . وهذه المتغيرات يحق للمسلم أن يجتهد فيها ، ومن هنا كانت مرونة الفكر الإسلامى فهو لم يغلق بابه على مفاهيم جامدة متحجرة ، ولكن جعل من طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وتحولت الأمة الأمية بفضل الإسلام إلى أمة جديدة . . دستورها الإيمان بالله ، والإيمان بالله يتطلب العلم . . والعلم فى حاجة إلى إعمال الفكر والعقل ودراسة الكون وما فيه من مظاهر مختلفة ، ودراسة كل ما يحيط به من نبات وحيوان وجماد ، بجانب أهمية أن يعرف الإنسان نفسه التى بين جنبيه . فالإسلام قد أولى العلم اهتماماً خاصاً . . قال تعالى :

﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ . .

وقال تعالى :

﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ . .

وقال أيضاً :

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ . .

أما أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام فى هذا المجال فكثيرة منها مثلا :

- « العلماء ورثة الأنبياء » . .
- « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء » . .

ـ « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً ، سلك به طريقاً إلى الجنة » . .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قوله : « الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق بها » . .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما : « خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت » . .

فالإسلام لا يحجر على الفكر ، بل يدعوه إلى الانطلاق . . ومن هنا فقد حاولوا بعد رحيل الرسول عليه الصلاة والسلام إلى أكرم جوار أن يتأملوا ويتدارسوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . . ويستخلصوا منها المواعظ والأحكام . . ووجدوا فى القرآن والسنة ما يضيىء جوانب حياتهم ويعمق نظراتهم للأمور والحياة . .

فهناك فى القرآن الكريم قصص السابقين . . كما فيه أيضاً تشريع وحكمة ، وفيه كما فى السنة عقيدة وقوانين ، وكل هذه الكنوز عكفوا على دراستها . . فكان لابد لهم من دراسة التاريخ . . وخاصة سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وما سبقه من الأنبياء والرسل ، وهذا دفعهم إلى دراسة ما جاء فى التوراة والإنجيل . .

وإذا كان القرآن الكريم والأحاديث الشريفة هى مصدر التشريع فلابد من صيانتهما من اللحن ، فأرشدهم ذلك إلى البحث عن القواعد التى تصون لغتهم من لحن الأعاجم . .

والإسلام عقيدة وعبادة ، وتشريع . . ومعاملات ، ومن هنا بدأت الدراسات المرتبطة بأمور الدين معتمدة على الكتاب والسنة . . ولما كان العرب يعتمدون على الحفظ ، فكانوا يحفظون الأشعار التى قيلت فى مختلف المناسبات إلا أن الأمر فيما يتعلق بأمور دينهم لم يعد كافياً فيه الحفظ فلابد من تدوين القرآن الكريم والسنة المطهرة . . وبالفعل بدأوا بجمع القرآن الكريم فى عهد الصديق ، ونسخوا منه عدة نسخ فى عصر عثمان الذى أرسلها إلى الأقاليم المختلفة . .

وقد استراح المسلمون كثيراً عندما تم جمع القرآن الكريم ، بناء على اقتراح عمر بن الخطاب لأبى بكر عندما شاهد عشرات من حفاظ القرآن الكريم وقد استشهدوا فى حروب الردة . . وظل هناك أمل عزيز أرادوا أن يحققوه ، وهو جمع الأحاديث النبوية الشريفة حتى لا تندثر بموت من يحفظونها فى صدورهم ، وقد تحقق هذا الأمل فى عهد عمر بن عبد العزيز . .

وباتساع رقعة العالم الإسلامى فى العصر الأموى واختلاط العرب بالحضارات الأخرى . . الفارسية والهندية والمصرية والرومانية ، كان عليهم حماية لدينهم من العقائد السائدة فى البلدان المفتوحة أن يدرسوا ما يحفظ عقيدتهم وما فيها من تشريع وتفسير ، والاهتمام بالنحو واللغة . . فكان القرن الأول للهجرة هو بمثابة بعث لهذه العلوم المتعلقة بدينهم . . والتعمق فيها خوفاً من التيارات الدخيلة . .

وجاء العصر العباسى ، ولم تعد هناك الفتوحات الكاسحة التى بدأت فى عصر الواشدين وخلفاء بنى أمية ، ولكن كان هناك وهج الحضارة الإسلامية فقد آن الأوان لأن تبلور العقلية العربية وأن يتفيأ العالم ظلال الحضارة الإسلامية . .

فالإسلام لم يحجر على فكر ما دام لا يتنافى مع عقيدة التوحيد ، وفتح كل النوافذ من أجل التقدم مما يشجع عليه الفكر الإسلامى . . وخلفاء بنى العباس تربى معظمهم على مقربة من الحضارة الفارسية ، فشجعوا العلماء فى مختلف الميادين ، واستقدموا إلى بغداد كبار العلماء والأطباء . . وفتحوا باب الترجمة من مختلف اللغات إلى العربية . . من لاتينية وسريانية وهندية وفارسية ويونانية . .

وأصبح المترجمون لهم مكانة خاصة عند الخلفاء الذين أغرقوهم بالعطايات والهبات والمنح المالية المجزية ، مما حفزهم على ترجمة الأعمال الهامة فى كل هذه اللغات . . ولم يحجز العباسيون على هذا الفكر لأنهم كانوا يعتقدون أن إيمانهم بالإسلام لا يمكن أن يزعزعه أى فكر دخيل ، ولكن المعرفة ضرورية ، والعلم لا وطن له . . والمعرفة لمجرد المعرفة شىء يهم كل من يريد أن يعرف . .

وكان للنساطرة واليعاقبة الذين درسوا الفلسفة اليونانية دور مهم فى الترجمة . . وإذا بالمسلمين يدرسون كل هذه العلوم فقرأوها واستوعبوها ، وأضافوا إليها . . وعرفوا ما بها من إيجابيات وسلبيات ، فإذا بالعقلية العربية تصبح أكثر تفتحاً . . وأصبحوا يملكون ناصية الفكر ويقدمون جديداً فى مختلف ميادين العلم . . من فلك وطب ورياضيات ، كما أنهم فى محاولاتهم دراسة أمور دينهم على ضوء عقيدتهم اتجهوا إلى الدراسات الفلسفية حتى يمكنهم الرد على أرباب الحضارات الأخرى بلغة العقل والمنطق ، لإقناعهم بأنه لا تعارض بين الإسلام وبين التقدم المادى والحضارى فى أمور لا تمس العقيدة . .

وكان لابد من التعرض بالدراسة لما جاء به الدين الحنيف ومحاولة تقريب ذلك إلى الأذهان ، وخاصة عند الحديث عن صفات الله سبحانه وتعالى فكان علم الكلام . . أوهذا العلم الذى يوضح أصول العقيدة . .

كما أن الظروف السياسية التى أعقبت وفاة الرسول عليه الصلاة ولسلام ، وما ظهر من خلافات حول الخلافة ، ومن هو الأحق بهذه الخلافة ، وما احتدم من صراعات نتج عن ذلك ظهور الفرق الإسلامية المختلفة ، فعندما احتدم الخلاف بين على ومعاوية ظهرت الشيعة والمرجئة والخوارج . . فقد أخذوا يناقشون بعد مقتل عثمان وعلى ، هل القاتل يعتبر مؤمناً أم كافراً ؟

فقال البعض أن القاتل سوف ينال جزاءه ، ولكن مادام مؤمناً بالله واليوم الآخر فلماذا ندخله

فى دائرة الكفر ، بينما رأى البعض الآخر أن من قتل عثمان أو على يعتبر كافراً . . وأرجأ البعض الآخر أمرهم إلى الله . . ثم ظهر على الساحة الفكرية العديد من القضايا التى شغلت بال المفكرين كقضايا الجبر والاختيار ، وهل الإنسان مخير أو مسير . .

بدأت تظهر المذاهب الفكرية المختلفة من المعتزلة والأشاعرة والمتصوفة ، كما ظهر الفلاسفة الكبار من أمثال الفارابى وابن سينا وإخوان الصفا ، بجانب ما ظهر فى الأندلس من فلاسفة من أمثال ابن رشد الذى شرح فلسفة أرسطو حتى أُطلق عليه الشارح الأعظم لآراء فيلسوف اليونان الكبير ، والذى رد على هجوم الإمام الغزالى على الفلسفة ، فقد ألف كتاب تهافت التهافت رداً على كتاب الإمام الغزالى (تهافت الفلاسفة) وكان ابن رشد يريد أن يثبت أنه لا تناقض بين الدين والفلسفة من خلال ما كتب فى كتاب (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) . .

وكتاب آخر (الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة) . . كما ظهر أعلام فى الفلسفة فى المغرب كابن ماجة وابن الطفيل . .

والعجيب أننا نرى اليوم من ينكر على العرب قدرتهم على الابتكار أو دراسة الفلسفة لأن عقليتهم لا يمكنها القدرة على التفلسف . . ونورد هنا ما كتبه الدكتور محمد عاطف العراقى فى كتابه (الفلسفة الإسلامية) ورده على هذه الادعاءات فيقول :

يقول رينان فى كتابه عن « ابن رشد والرشدية » معبراً عن هذه التفرقة : « لا يمكننا أن نجد عند الجنس السامى مذاهب فلسفية إذ أن هذا الجنس لم يترك بحثاً فلسفياً خاصاً به ، بحيث إن الفلسفة عند الساميين ما هى إلا مجرد اقتباس وتقليد للفلسفة اليونانية » . .

والواقع أن هذه الاتهامات التى شاعت فى القرن التاسع عشر . . قد أثبت البحث العلمى الدقيق خطأها من أساسها ، ووجد من المستشرقين والباحثين الغربيين من دافعوا عن أصالة الفلسفية الإسلامية وأثبتوا المكانة الـ ...ـة التى احتلها فلاسفة العرب فى تاريخ الفكر الفلسفى العالمى . .

لقد ذهب الباحثون المنصفون إلى دراسة كتب المتكلمين والفلاسفة الإسلاميين ومتصوفة الإسلام ، دراسة دقيقة ، لابد أن تؤدى إلى التسليم بجدة وطرافة الفلسفة الإسلامية ، وأن هذه الفلسفة لها موضوعاتها ومجالاتها التى تختلف فى طبيعتها عن موضوعات ومجالات الفلسفة اليونانية . . صحيح أن فلاسفة الإسلام قد تأثروا بالفلسفة اليونانية ، ولكنهم تأثروا أيضاً بالمصدر الدينى الإسلامى ، بحيث كان هذا المصدر ـ كما سنرى ـ من المصادر الأساسية التى اعتمد عليها فلاسفة العرب . .

ولا نريد الإطالة فى هذا الموضوع ، إذ ليس من المناسب ونحن فى أواخر القرن العشرين ، أن ندافع عن الفلسفة العربية ونرد على الاتهامات التى وجهها نفر من المستشرقين إليها ، لأن الكثير من هذه الاتهامات . . إن لم يكن كلها ، قد أصبحت متهافتة متناقضة بعد الدراسات العميقة التى قام بها الكثير من الدارسين المنصفين ، سواء فى الشرق أو فى الغرب ، والتى أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك ، أن هناك الكثير من العناصر الجديدة والأصيلة والكثير من القضايا الفلسفية التى اختص بها فلاسفة العرب دون غيرهم ممن سبقوهم من فلاسفة اليونان . .

فالقول بأن القرآن الكريم كان عائقاً لحرية الفكر ، يعد عندنا من قبيل الأقوال التى يحلو لأصحابها أن يطلقوها دون الاعتماد على أساس ثابت متين . . إذ كيف يكون القرآن حائلاً بين المفكرين الإسلاميين وبين تقدم البحوث الفلسفية ، فى الوقت الذى يرى فيه الدارس الكثير من المذاهب التى قال بها مفكرو العرب ، والتى تقوم على أساس العقيدة الدينية ، والتى عبرت خير تعبير عن روح الحضارة العربية فى عصر قوتها وازدهارها ومجدها . .

وإذا كانت هذه الآراء التى تذهب إلى أن الدين الإسلامى الذى يعتنقه فلاسفة العرب يعوق حرية الفكر ولا يشجع على النظر العقلى ، تعد آراء خاطئة تماماً ، لأن آيات القرآن تحث على النظر والتأمل فى الكون ، فإن الآراء التى يرددها البعض من المستشرقين والتى تقوم على التمييز بين طبيعة عقلية الجنس السامى وطبيعة عقلية الجنس الآرى ، تعد أيضاً آراء خاطئة . .

ولهذا لم يكن من الغريب أن نجد كثيراً من الكتاب أمثال بول ماسون أورسل يتجهون إلى إبطالها من زواياها ، ويذهبون إلى أنها آراء لا أساس لها ، ولا فرق بين الشعوب فى التفلسف ، والتفكير الفلسفى يعد خطا مشتركاً بين الناس جميعاً شرقاً وغرباً . .

أما القول بأن العرب لم يفعلوا فى حقل الفلسفة شيئاً إلا نقل دائرة المعارف الفلسفية اليونانية . . فإن هذا القول لا يستند إلى أساس صحيح ، إن مفكرى العرب قد تأثروا بمفكرى اليونان ، هذا لا جدال فيه . . ولكن صحيح أيضاً أن هؤلاء المفكرين قد أثروا الحياة العقلية ثراء منقطع النظير . . إنهم أضافوا إلى دائرة المعارف اليونانية إضافات تعد جديدة خاصة بهم ، وذلك يرجع إلى أن للفلسفة العربية قضاياها ومشكلاتها الخاصة بها ، والتى لم تعرف عند مفكرى الإغريق . .

ونود أن نشير إلى أن فلاسفة العرب إذا كانوا قد تأثروا بالتراث الفلسفى اليونانى ، فإن هذا لا يقلل من أهمية الفلسفة العربية ، بل إنه يعد شيئاً طبيعياً ، أى مظهرا من مظاهر الصحة لا المرض . . فالفلسفة اليونانية قد تأثرت بالعلوم فى بلاد الشرق . . وأفلاطون قد تأثر بمن سبقوه . . وأرسطو اعتمد فى بعض جوانب فلسفته على أفكار المدارس الفلسفية السابقة عليه . .

وعلى هذا فإننا نستطيع القول بأنه لا توجد أصالة خاصة من كل زواياها ، وذلك على مستوى الفكر الفلسفى الإنسانى ، بمعنى أن كل فيلسوف تأثر فى جانب أو أكثر من جوانب تفكيره بالمفكرين الذين سبقوه . . وإذا كنا لا نطعن فى قيمة وأهمية الفلسفة اليونانية ، فإننا يجب أيضاً ألا نقلل من أهمية الدور الذى لعبته الفلسفة الإسلامية . .

ولم تكن النهضة الإسلامية مرتبطة بالفلسفة الإسلامية وعلم الكلام . . ولكن ظهر كبار الأئمة من أمثال الإمام جعفر الصادق ٤٨ هـ ، والإمام أبى حنيفة ١٥٠ هـ ، والإمام مالك بن أنس ١٧٩ هـ ، والإمام الشافعى ٢٠٤ هـ ، والإمام أحمد بن حنبل ١٤١ هـ ، وغيرهم من الذين كان لهم اجتهادهم الذى ما يزال نور هداية لكل من يريد أن يعرف أمر دينه ، ويتفقه فيها ، أى أنهم قاموا بدور عظيم حتى يمكننا فهم الأحكام الشرعية . .

وقد كان الفقه الإسلامى يمتاز بالمرونة والفهم الحقيقى لروح الإسلام . . أو على حد تعبير المستشار عبد الحليم الجندى فى كتابه (الشريعة الإسلامية) :

ونصوص السنة منها : المكتوب فى حياة الرسول ﷺ وهو نادر ، وأكثرها المكتوب بعد وفاته ، فلقد خاف المسلمون ـ فى أول الأمر ـ أن يكتبوا الحديث النبوى ، فيختلط بالقرآن . . وكانوا يعتبرون الحفظ فى القلب أثبت وأدق من التدوين على الورق ، ويتلقون النصوص من حفاظها الفاهمين لها ، ويشترطون لكل خبر إسناداً صحيحاً من رواة موثوق بهم فى الحفظ والعدل والصدق والإتقان ، يروون عن صاحب رسول الله ما يرويه . .

وبهذا التحرى الدقيق بالصدق والعدالة تمتاز العلوم الشرعية دائماً وتاريخ الإسلام فى عصره الأول . .

اهتم بتدوين السنة عمر بن عبد العزيز إذ هو خليفة على رأس المائة الثانية للهجرة ، فكلف علماء المدينة بذلك (الزهرى ـ أبا بكر بن حزم) ، ومن نتائج ذلك وضع « موطأ مالك » بن أنس فى النصف الأول من القرن ، وكان أشهر مجموع للسنن ، وتلاحقت بعده المجموعات فى حواضر العلم .

وفى النصف الأول من القرن الثالث علا شأن مسند الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١) ، إذ يحوى ثلاثين ألف حديث ، ثم أعقبه تلميذاه البخارى (٢٥٦) ومسلم (٢٦١) فجمعا ما سمى الصحيحين لاحتواء كل منهما على أحاديث تعقبا رواتها فى كل أمورهم حتى ثبت للعلماء صحة أحاديثهم . .

بلغت أحاديث البخارى (٧٣٩٧) حديثاً بالمكرر منها ، وبلغت أحاديث مسلم (٧٥٧٥) حديثاً . . ومن بعدهما تابع جمع الحديث وتحقيقه فى جامع صحيح كثيرون ، منهم

تلميذ ثالث لأحمد بن حنبل هو داود (٢٧٠) فى سننه ، ثم تلاميذ هؤلاء : الترمذى (٢٧٩) فى سننه والنسائى (٣٠٣) وابن ماجه (٢٧٣) . .

وكتب هؤلاء الستة تسمى « الصحاح الستة » . .

وفى عصر أحمد بن حنبل نشأت علوم مصطلح الحديث والجرح والتعديل التى أوصلها بعضهم ، فيما بعد ، إلى خمسة وستين علماً تبحر فيها العلماء أعمق التبحر ، فاشترطوا شروطاً كثيرة فى الراوى وفى الرواية لصيانة الحديث النبوى من أن يدخل على لفظه تحريف مقصود أو غير مقصود ولو فى حرف واحد . .

وكثرت شروح السنن لأنها تطبيقات الرسول ﷺ للأحكام الشرعية على تصرفات الأفراد والجماعة والدولة فى السلم والحرب ، وفيها الحكمة التى كلف الله رسوله أن يعلمها الناس بأعماله وأقواله . .

سئلت أم المؤمنين عائشة عن خلقه ﷺ فأجابت أوجز عبارة عن أكرم حياة وأعظم نجاح فقالت : « كان خلقه القرآن » . .

ومع أن العلماء شرحوا صحيح البخارى اثنين وثمانين شرحاً حتى القرن الثامن ، وهو مجموع واحد من مجاميع كثيرة لكل منها شروح ، فابن خلدون يقول : « ولقد سمعت كثيراً من شيوخنا رحمهم الله يقولون : (شرح كتاب البخارى دين على الأمة) يعصون لو أن أحدا من علماء الأمة لم يوف بما يجب له من الشرح بهذا الاعتبار » . .

ذلك أن فحوى الأحاديث الواردة فيه موجودة للوجود البشرى كله فى عصوره كلها . . والمعانى الخالدة تنتظر من العصور المتعاقبة الفهم الذى يقود خطاها فى أطوارها لتلتزم جادة الإسلام على أساس نصوص القرآن والسنة . . واجتهد الأئمة وتفقهت كثرة أهل السنة بفقه الأئمة الأربعة : أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل . والأخيران تلميذان للأولين ، وهذان تلميذان للإمام جعفر الصادق الإمام السادس للشيعة الإمامية أو (الجعفرية ـ نسبة لجعفر) .

ولم تقتصر الحضارة الإسلامية على الفكر والثقافة وعلوم الدين، بل امتدت إلى العمارة، فوجدت ازدهارا هائلاً فى العمارة الإسلامية فى مختلف أنحاء العالم سواء فى المغرب العربى أو المشرق العربى ، وما زالت الآثار الإسلامية فى مختلف بلدان العالم العربى وأسبانيا ، شاهدة على حضارة بالغة السمو ، عظيمة الابتكار ، حضارة قادرة على امتصاص ماضى الحضارات الأخرى من ابتكارات العقل الإنسانى ، والإضافة إليها وتطويرها دائماً بما نطلق عليه الفن الإسلامى الذى تبدى فيما أبدعه الفنان العربى من أشكال زخرفية برزت أشد ما يكون البروز فى قصور الملوك والأمراء وفى المساجد وفى الأضرحة . .

ويحدثنا الدكتور ثروت عكاشة فى كتابه (القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية) . . هذا الكتاب الذى تحدث فيه عن العمائر الإسلامية المنتشرة فى عالمنا الإسلامى الكبير من سمرقند وبخارى عبر إيران والعراق والشام وتركيا ومصر إلى تونس والأندلس . .

يحدثنا الدكتور ثروت عن الفن الإسلامى . . عن وحدة الطابع الإسلامى فيرى أنه إذا كانت للبنايات الصحراوية أثرها فى توجيه الفن المعمارى وطبعه بطابع متميز ، يمثل ذلك البيئة فى الكثير من مظاهرها ، كذلك كانت للتعاليم التى نزل بها الدين الإسلامى هى الأخرى أثرها فى الفن المعمارى ، فالإسلام يعد كل بقعة من الأرض طاهرة يجوز للمؤمن أن يؤدى عليها ما فرضه الله من صلاة ، لذا جاءت المساجد أول ما جاءت فى الإسلام صحوناً متسعة تسور بجدران ، وإذا كان لابد أن يتجه المسلمون فى صلاتهم إلى قبلة بعينها ، جاء بناء المسجد مرتبطاً كل الارتباط بالتوجيه الدينى . .

حمل فن العمارة فى الإسلام تعبيراً معمارياً جديداً إذ ربط هذا الفن المعمارى بين المسجد والكعبة فى مكة المكرمة ، وتزاوج التعبير المعمارى الأول الذى أحسه ساكن البادية من صلته بالسماء من خلال صحن داره المكشوف مع التعبير المعمارى الجديد المستوى من صلة العابد بالأرض ومع اطراد التحضر وهجر العرب للبادية واستيطانهم المدن وانتشار الإسلام بين الأمم ذات الحضارة والعمارة الحضرية كإيران والعراق أنشىء فن معمارى حضرى للجوامع والمساجد والمدارس والمعتكفات (الخانقاوات والتكايا) وغير ذلك من الأبنية الدينية . . والدين الإسلامى هو الذى جد عليه لم يقطع أو يخلص من التأثيرات الأولى ببيئته الصحراوية ، فجاء فنه يجمع بين جديده الذى أفاده من المدن المتحضرة ، وبين قديمه الذى علق به من آثار البيئة الصحراوية . .

ويرى الدكتور عكاشة أيضاً : « أنه إذا كان الفن الإسلامى قد تأثر بفنون البلاد التى فتحها وخاصة الساسانى منها والبيزنطى ، فإنه قد استبعد منها الجوانب الأسطورية وفنون المحاكاة الشكلية النوعية أو الخاصة وتكويناتها الموروثة والمنقولة والمبتكرة ثم عالج فنونه التجريدية بما يتفق مع تعاليم الدين الإسلامى وروحه وفلسفته وبهذا تميز الفن الإسلامى بقسماته عن الفنون التى تأثر بها وعن باقى الفنون الدينية » . .

على أن الفن الإسلامى قد وجد طريقاً سهلاً إلى امتصاص الفنون المختلفة التى تأثر بها وصهرها فى بوتقة الشخصية لأن كافة هذه الفنون تنظمها روح الشرق التى تنحو بطبيعتها نحو التجريد ، وتحوير الأشكال الطبيعية وتنسيقها فى صيغ ذات إيقاعات وتكوينات هندسية وزخرفية ، ومن كل الحصاد الفنى الذى خالطه المسلمون فى عصر انتشارهم استنبطوا نظاماً معمارياً مميزاً متكاملاً من التشكيلات والتراكيب المعمارية والزخرفية التى تكون فى مجموعها الطراز الإسلامى الموحد فى روحه وطابعه ، وإن اختلف فى تكوينه وبعض تفاصيله تمام الاختلاف عن باقى الفنون الدينية لدى أصحاب الديانات الأخرى . .

وهكذا نرى كيف أصبح الإسلام هو عقيدة وشريعة . . وهو صلة بين العبد وربه ، وهو ينظم هذه الصلة بينه وبين خالقه وبينه وبين الآخرين . . فأصبح ديناً وفى الوقت نفسه حضارة ورقياً رفع معتنقيه إلى أعلى مناسيب التقدم والثقة بالنفس وبناء الحياة . .

لم يكن يدعو للكسل أو التواكل . . بل دين يدعو للعمل والعلم ودفع عجلة الحياة إلى ما هو أرقى وأنفع . .

وفى ظله أصبح الإنسان يحس بقيمته كإنسان له دوره فى خدمة المجتمع وخدمة الآخرين ، وخدمة نفسه أيضاً ، وعندما تمسك به المسلمون كمنهج وأسلوب حياة وليس مجرد مظاهر بعيدة عن جوهر الدين . . ساد العالم كله .

وعندما عجز المسلمون عن التمسك بتعاليم دينهم وروحه السمحة . . وتصوروه مجرد مسبحة . . وإرسال الذقون . . وابتعدوا عن جوهره وقدرته على صياغة الإنسان السوى . . عندما تناسوا ذلك تخلفوا . . بينما ساد العالم أوربا التى أخذت منهم مناهج البحث . . والتعلق بالعلم . . والأخذ بالأسباب . .

ولنقف عند رأى أنتونى ناتنج وهو وزير إنجليزى سابق . . له قدرة عجيبة على التحليل ، فهو يحدثنا عن العصر الذهبى للعباسيين ، وما قدموه فى مجالات الفكر والأدب والثقافة والفلسفة والفلك والرياضة ، ثم يختم بحثه بقوله : « ولقد قدر للخلافة العباسية أيضاً أن تحقق تقدماً رائعاً فى علم تدوين التاريخ . . كانت البداية فى القرن التاسع على يد جعفر الطبرى . . واستمر بعدها موكب طويل من المؤرخين المسلمين على مدار سبعمائة عام حتى الغزو العثمانى فى القرن السادس عشر » . .

ولقد ولد الطبرى الذى يعد أعظم هؤلاء المؤرخين جميعاً عام ٨٣٨ فى طبرستان جنوبى بحر قزوين . . وإليه يرجع الفضل فى تأليف أول تاريخ عالمى باللغة العربية . . وهو كتابه المشهور (تاريخ الرسل والملوك) الذى بدأ بخلق الكون واستطرد حتى عام ٩١٥ . .

كان الطبرى غزير المادة مثال التفانى فى العمل ، وقيل أنه كان يكتب أربعين صفحة كل يوم على مدار الأربعين عاماً التى استغرقها فى إتمام ذلك العمل الضخم ، وأنه باع أكمام قميصه لشراء طعام لأسفاره بحثاً عن المادة فى مصادرها ، وهى أسفار حملته إلى أقاصى الأركان فى العراق وفارس والشام ومصر . .

وتلاه فى الترتيب التاريخى أبو الحسن المسعودى من أبناء بغداد . . وقد سمى (هيرودوت العرب) . . وقد نقب المسعودى بكتابه المعروف باسم « مروج الذهب ومعادن الجوهر » فى تواريخ المسلمين واليهود والرومان والهنود ، وأكد دعوى مثيرة تقول بأنه عند بدء الخليقة كان البحر أرضاً وكانت الأرض بحراً . .

كما نهج المسعودى نهجاً جديداً فى أسلوب تدوين السير ، فبدلاً من تسجيل الأحداث وفقاً لترتيبها وتسلسلها ، كما فعل الطبرى عمد إلى تجميعها ووصلها بالأسر الحاكمة والشخصيات . .

وبعد قرنين جاء عز الدين بن الأثير ، الذى تولى فى كتابه « الكامل فى التاريخ » تلخيص وتركيز المؤلف التاريخى الكبير للطبرى . . ثم زاد عليه لكى يغطى فترة الحروب الصليبية . .

وفى القرن الثالث عشر كان أحمد بن محمد بن خلكان ، من نسل يحيى البرمكى وزير هارون الرشيد ، أول مسلم يصنف قاموساً فى السير والشخصيات القومية . . وجاء فى أعقاب ابن خلكان ، بعد سقوط الخلافة العباسية أبو الفدا ، سليل صلاح الدين ، الذى تولى بدوره تلخيص تاريخ ابن الأثير ، وتابع الوقائع إلى تاريخ وفاته فى عام ١٣٣٢ . . ومن المصادفات أن هذا العام نفسه قد شهد فى تونس مولد آخر أكابر المؤرخين العرب ، عبد الرحمن بن خلدون . .

انحدر ابن خلدون من أسرة عربية فى أسبانيا ، كانت قد هاجرت من اليمن فى القرن التاسع . . وقد بدأ حياته موظفاً فى الحكومة فى عهد سلطان غرناطة عام ١٣٦١ ، بعد انقضاء نيف وثلاثمائة عام على زوال الخلافة الأموية فى أسبانيا . .

ولكن نظراً لما أثارته صداقته للسلطان من حسد وزيره القوى المغرض ، انسحب ابن خلدون إلى الجزائر حيث بدأ إعداد مؤلف عن تاريخ الفلسفة عند العرب والفرس والبربر ، فى مدونة من ثلاثة أجزاء ، اشتهر الجزء الأول منها باسم « مقدمة ابن خلدون » . .

وقد نهج ابن خلدون فى هذا المصنف الكبير نهجاً جديداً تماماً باصطناع دراسة اجتماعية للتطورات والوقائع التاريخية تربط بين العوامل المؤثرة كالمناخ والجغرافيا ، وكذلك الأحوال الدينية والسياسية ، وبين السلوك وتفاعل الأحداث عند العرب ، وما كان يطرأ على إمبراطوريتهم من ازدهار وانحدار . .

وكان ابن خلدون ، مثل الطبرى ، يحب الأسفار والترحال ، وفى عام ١٣٨٢ حمله السعى وراء مواد لعمله الضخم إلى السفر إلى مصر ، حيث أصبح لأول عهده بها محاضراً فى الأزهر ، ثم عين كبيراً للقضاة فى القاهرة فى عهد أحد سلاطين المماليك . . وبعد سنوات قلائل اصطحب جيش المماليك إلى الشام لمحاربة المغول . .

ويقال أن تيمور لنك زعيم المغول استقبله كمبعوث للمماليك، وتعد هذه المغامرة الفريدة بالنسبة لابن خلدون تجربة أخرى فى العلاقات الإنسانية لتأكيد دراساته الاجتماعية الكبرى ، التى ظلت حتى اليوم منقطعة النظير كمرشد فلسفى وكمادة وثيقة عن طبيعة وأخلاق ومزاج الأمة العربية . .

تلك ، ومثلها كثير ، هى المعالم البارزة فى عصر التنوير والمعرفة الإسلامى، الذي بدأ فى أوائل عهد الخلافة العباسية ، وكان مبعث إلهام للثورة العلمية فى أوربا فى القرن السابع عشر . . ولم يسبق لحاكم عربى أن عمل على تشجيع وتقدم الرقى الثقافى مثلما عمل الخليفة المأمون . .

وعندما توفى وهو فى الثامنة والأربعين بالتيفود كانت البلاد تنعم بالأمن والرخاء . . وقد يذكر الناس هارون الرشيد مقروناً بتألق وأبهة ألف ليلة وليلة ، ولكن عصر التفوق والسيادة العباسى قد استهل بأبى جعفر ثم نضج وأينع فى عهد المأمون ، حتى لقد أصبحت عاصمة الخلافة أعظم مركز للثقافة والعلم والترف فى العالم فى وقت كان فيه قادة أوربا لا يستطيعون كتابة أسمائهم . . ومن المؤسى أنه فى غضون أقل من سبعين عاماً بعد وفاة المأمون وصل تفوق العباسيين السياسى إلى منتهاه وسارت الخلافة مرة أخرى فى طريق التدهور . .

فما الذى حدث بعد ذلك . . ؟

لماذا بدأت الشيخوخة تدب فى هذه الحضارة الرائعة ، ولماذا أخذت طريقها نحو التدهور ثم الأفوال والانحلال . .

ونحن عندما نقول ذلك . . فنحن لا نقصد إلا تخلف المسلمين لا الإسلام . . فالإسلام كعقيدة وشريعة ودستور حياة منارة شامخة تضيىء للناس طريق حياتهم دنيا أخرى ما دام يتمسك به أصحابه . . ولا يعتريه التغير .

ولكن التغيير يعترى المسلمين لا الإسلام . .

لماذا انحدرت شمس حياتهم وجنحت نحو المغيب ، وما هى الروافد التى تجمعت حتى تغرب شمس تقدمهم هذا المغيب المؤسف الحزين . .

وكيف يمكننا أن نعيد المجد السالف برؤية عصرية جديدة . .

وكيف نجتاز الصعوبات التى تحيط بنا ، والأسوار التى تحاصرنا . . والأشواك التى تدمى قلوبنا . . ونتخلص من أسر التخلف إلى عالم التقدم . . ونبعد عن دائرة ما يسمى بالعالم الثالث ويكون لنا دور فى صنع الحياة ولا نصبح مجرد نادمين على حضارة زاهية لم يبق منها إلا وهج الذكريات . . وحنين المجد . . ودموع الكبرياء الجريحة ؟ . .

لنتابع إذن ما حل بنا حتى نستفيد من دروس التاريخ التى نأمل أن تعيننا على استشراف فجر جديد . .

١١

بين القمة والسفح

« ما أقبح اللجاجة بالسلطان .. والضجر مع القضاة .. والسخافة بالفقهاء .. والبخل بالأغنياء .. والمزاح بالشيوخ .. والكسل بالشباب .. والجبن بالمقاتل » ..

[المأمون]

□ ١١ □

بين القمة والسفح

لقد اتسع العالم الإسلامى اتساعاً هائلاً . . وضم تحت لوائه شعوباً مختلفة ، وحضارات متباينة ، واستطاعت الحضارة الإسلامية أن تمتص المفيد من حضارات الأمم الأخرى وصهرها فى بوتقتها ، وأصبح للحضارة الإسلامية فكرها العميق ، كما أصبح لها أدباؤها ومفكروها وشعراؤها . . .

وقد تتابع عدد كبير من الخلفاء . . بعضهم كان محباً لدينه وعقيدته ، فعمل على قدر استطاعته أن يتذوق الناس ما فى عقيدة الإسلام من قيم ومبادىء ومثل عليا ، وبعضهم الآخر كان يعمل أكثر من أجل السلطة . . فلم يترك فيما يتعلق بطيب الذكر الذى حظى به الآخرون أثراً يذكر فطواه النسيان . . فلا أحد يمكن أن ينسى عظمة الصديق ، ولا عدل عمر . . ولا طيبة عثمان ، ولا تقوى على ، ولا زهد عمر بن عبد العزيز ، كما أنه لن ينسى التاريخ شخصيات قوية كمعاوية بن أبى سفيان أو عبد الملك بن مروان . . أو الوليد بن عبد الملك فى العصر الأموى . .

وتألق فى العصر العباسى هارون الرشيد الذى كان يحج عاماً . . ويجاهد عاماً ، ورغم ما قيل عنه وما نسج حوله من أساطير ألف ليلة وليلة . . فقد كان هذا الرجل من أعظم الخلفاء . . وفى عهده سعد الناس بفضل ما كانوا يتمتعون به من سعة الرزق ، وربما لأن خزينة الدولة كانت عامرة والاقتصاد مزدهراً والترف كان سمة من سمات حكمه ، نسبوا إليه ما نسب من أساطير ألف ليلة وليلة . .

وقد كان الرجل محباً لدينه ، مبغضاً ما يمت إلى الرياء بصلة . . كثير الصلاة ، وكان يتصدق فى كل يوم بألف درهم من ماله الخاص . . وكان أيضاً متواضعاً . .

ويروى رجل اسمه أبو معاوية الضرير أنه أكل ذات يوم مع الرشيد وبعد تناول الطعام صب رجل على يديه الماء ولم يعرفه ، وسأله الرشيد :

ـ من الذى صب على يديك الماء ؟

ـ لا أدرى يا أمير المؤمنين . .

ـ إنـه أنـا . .

ـ أنت تعمل هذا إجلالا للعلم ؟!

ـ نعـم . .

وبلغ من إكرامه للعلم أنه عندما توفى ابن المبارك جلس بنفسه يتقبل العزاء فيه عن أهله . .

ثم إن هذا الرجل الذى حيكت حوله الأكاذيب ، كان لا يتيه على العلماء ، بل كان يتصيد النصيحة . .

ومن هذا ما يروى أن ابن السماك دخل عليه يوماً ـ وكان يعظه ـ وجىء بكوب من الماء للرشيد فسأله ابن السماك :

ـ على رسلك يا أمير المؤمنين لو منعت هذه الشربة بكم تشتريها ؟

قال : بنصف ملكى . .

قال : اشرب هنأك الله بها . .

فلما شربها قال :

أسألك : لو منعت خروجها بماذا تشترى خروجها ؟

قال : بملكى . .

قال : إن ملكا قيمته شربة ماء لجدير ألا ينافس فيه . .

فبكى الرشيد . .

فهل يمكن لمن يحمل هذا القلب وهذا العقل أن يكون كل همه الجوارى ، كما تقول الأساطير . .

كان عهده عهد انتصار للحضارة الإسلامية ، وكذلك عهد المأمون الذى شجع على الترجمة ، وعلى العلم وكان يتفقد أمصار العالم الإسلامى للاطلاع على أحواله بنفسه . . والتاريخ يروى لنا قوله : « ما أقبح اللجاجة بالسلطان ، والضجر مع القضاة ، والسخافة بالفقهاء ، والبخل بالأغنياء ، والمزاح بالشيوخ ، والكسل بالشباب ، والجبن بالمقاتل » . .

ولسنا هنا بصدد الحديث عن الخلفاء ومآثرهم ، ولكن الذى يثير الأسى أن الانقسامات التى حدثت فى العالم الإسلامى ، والصراعات المذهبية ، والدسائس من أجل السلطة . . ثم

انفلات بعض الأفكار إلى حد التطرف . . كل هذا كان من العوامل التى أدت إلى ضعف الأمة الإسلامية . . وتسلل (سوس) التحلل إلى داخلها مما أدى إلى انهيارها فيما بعد تحت ضربات المغول والتتار والصليبيين . .

ولم يكن هذا التحلل الذى كان بمثابة نذر اضمحلال الإمبراطورية الإسلامية ، راجعاً إلى الدين . . فالإسلام هو دين القوة والعزة والبناء ، ولكن العيب كان عيب المسلمين الذين تخلوا عن مبادىء دينهم ، ونظروا إليه نظرة شكلية ، فاهتموا بالمظهر دون الجوهر . . فأذنت شمس حضارتهم نحو مغيب حزين . .

فقد بدأ ضعف الخلفاء . . وابتدأت قبضتهم على ناصية الحكم تئول إلى غيرهم من الجند والوزراء . . وانقسم العالم الإسلامى إلى دويلات . . وضعفت النخوة الإسلامية التى جعلتهم يغـزون نصف العالم فى نصف قرن ويحققون انتصارات أشبه بالمعجزات ، ولم يكن سبب هذا الضعف ناتجاً عن قلة عددهم ، فقد كان عددهم أضعاف أضعاف ما كانوا عليه يوم بدأ الإسلام ينتشر فى العالم . . ولا كان سبب ضعفهم قلة العتاد ، فقد كان لديهم منه الكثير ، ولكن الضعف يرجـع إلى بعـدهم عن جوهر الدين ، وتعلقهم بالشكليات وغرقهم فى الماديات حتى انطبق عليهم قول الـرسول عليه الصلاة والسلام : « توشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائل : أومن قلة يومئذ يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذف الله فى قلوبكم الوهن ، فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت » . .

وحـالات الضعف والـوهن والانحـلال التى أصابت العالم الإسلامى فى لحظات ضعفه وانحلاله فى فترات ضعف العصر العباسى ما يندى لها جبين كل مسلم ، حتى أن «ابن الأثير» يروى كيف أن الناس لم تعد تصدق هزيمة التتار على يد المصريين ، كانوا يتصورون استحالة هزيمة التتار . . بل إنه يروى حكايات فى غاية العجب عن روح الوهن والضعف التى أصابت المسلمين عند تقدم جحافل المغول والتتار فى البلاد الإسلامية . . حتى أن المرء ليتساءل : أين روح الإسلام . . وأين كلمات الصديق : « احرص على الموت توهب لك الحياة » . . أوكلمات على بن أبى طالب للفاروق عندما أراد عمر بن الخطاب أن يذهب بنفسه لقيادة جيوش المسلمين فى العراق ، فقال له على : « يا أمير المؤمنين إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة ، هو دينه الذى أظهره ، وجنده الذى أعزه وأمده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ ، فنحن على موعد من الله ، والله منجز وعده وناصر جنده » . .

أين كان المسلمون فى هذا الزمان من هذا كله حتى تراهم أذلة تجاه المغول والتتار ؟

يقول ابن الأثير مصوراً، بعض ما كان يدور فى هذه الفترة الحرجة فى حياة المسلمين ومصوراً رعب الناس منهم :

« ووقع رعبهم فى قلوب الناس حتى كان أحدهم إذا لقى جماعة يقتلهم واحداً واحداً وهم دهشون ، ودخلت امرأة من التتار داراً وقتلت جماعة من أهلها وهم يظنونها رجلاً ، ودخل أحدهم درباً فيه مائة رجل . . فما زال يقتلهم واحداً واحداً حتى أفناهم ، ولم يمد أحد يده إليه بسوء ، ووضعت الذلة على الناس فلا يدفعون عن نفوسهم قليلاً ولا كثيراً ، نعوذ بالله من الخذلان » . .

وحكى أن أحدهم أخذ رجلاً ولم يجد ما يقتله به فقال له :

ضع رأسك على هذا الحجر ولا تبرح . .

فوضع رأسه وبقى إلى أن أتى التترى بسيف وقتله . .

قال ابن الأثير . . وأمثال ذلك كثيرة . .

لقد ضعف الإسلام عندما ضعفت العقيدة فى نفوس المسلمين ، وتخلف المسلمون ولم يتخلف الإسلام لأن الإسلام نور لا ينطفىء . . ولكن إذا ما ابتعدنا عن هذا النور . . خفت الضوء . . ثم عم الظلام . .

لقد تعرض العالم الإسلامى إلى فترات عصيبة فى تاريخه . . أخطرها بلا شك الحروب الصليبية ، والهجمات التتارية والمغولية . .

وقد بدأت هذه المحنة عندما ألقى البابا إريان الثانى فى بلدة كليرسون بفرنسا خطاباً يحض فيه المسيحيين على قتال المسلمين وتخليص بيت المقدس منهم . . وكان هذا الخطاب فى شهر نوفمبر عام ١٠٩٥ . . وكان هناك أيضاً الإمبراطور البيزنطى الذى يدعو ويطلب المدد لطرد الأتراك السلاجقة من آسيا الصغرى . . هذا فى الوقت الذى حدثت فيه نكسة للمسلمين فى أسبانيا ، حيث استطاع الفرنجة السيطرة على أسبانيا ، كما استعاد النورمانديون جزيرة صقلية . .

واستجاب المسيحيون فى أوربا لنداء البابا ، واحتشد منهم أكثر من ١٥٠ ألفاً من مختلف أرجاء أوربا ليكون ذلك بداية للزحف الصليبى نحو فلسطين ، وتهديد الوطن العربى . . هذه الحرب التى استغرقت مائتى عام . . وقد كانت هذه الحروب بمثابة الناقوس الذى دوق فى أنحاء العالم محذراً من الخطر الداهم الذى يمزق كيان الجسد العربى والإسلامى . .

أو على حد تعبير (ناتنج) . . فقد تزود العالم الإسلامى بما يلم شمله ويوحد هدفه على نحو لم يعرفه منذ أيام الفتوحات الكبرى ، وبغير هذا التحدى من جانب دين وجنس أجنبى ، فربما كانت الروح النضالية والإحساس بالمصير لدى المسلمين قد تعرضت للإنطفاء فى خضم

المنافسات التافهة والحروب الأهلية ، مما كان يمكن أن يترك العالم الإسلامى بغير مصدر للمقاومة حينما هبط عليها الخطر المغولى بعد ذلك بمائة وخمسين عاماً ، ولكن الحروب الصليبية أتاحت قيام صلاح الدين ، وقد جاءت انتصارات صلاح الدين فيما بعد على الفرنجة نبراساً للسلطان بيبرس المملوكى للإجهاز على الصليبيين بصورة نهائية . . ورد المغول على أعقابهم ، وبهذا أنقذ الدين الإسلامى وظفر العالم العربى بقرنين ونصف من الاستقلال النسبى . .

ويصف لنا أنتونى ناتنج المذابح التى ارتكبها الصليبيون أثناء غزوهم فلسطين ، وأسوق كلماته كرجل من الغرب ، فتكون رؤيته رؤية صادقة ، يقول :

« فى أول الأمر أفاد الصليبيون من مزية المباغتة ، وسارت الأمور كما يشتهون . . فقد انضمت قواتهم إلى جيوش البيزنطيين فى القسطنطينية فى ربيع عام ١١٩٧ واحتلوا نصف آسيا الصغرى قبل بداية الصيف ، ثم تدفقوا إلى طرطوس ، واقتحموا أنطاكية بعد حصار دام تسعة أشهر . . وقد ساعدتهم فى هذه العملية مساعدة كبرى الجالية المارونية التى كان الوالى السلجوقى قد طردهم منها » . .

ومن أنطاكية واصلوا الهجوم إلى فلسطين ، تاركين فى أعقابهم ـ على ما يحدثنا ابن الأثير ـ مائة ألف جثة لقتلى المسلمين . .

وفى السابع من شهر يونيو عام ١٠٩٩ ضربت الجيوش الصليبية المشتركة وعدتها أربعون ألفاً ـ الحصار على بيت المقدس الذى كان دفاع الفاطميين عنه محفوفاً بالمخاطر . .

وقد استطاعت الحامية المصرية القليلة التى لا تزيد على ألف من الرجال الأشداء الصمود ، وصد العدو مدى خمسة أسابيع ، إلى أن تمكن هؤلاء فى الخامس من شهر يوليو من إحداث ثغرة فى سور المدينة الشمالى تدفقوا منها إلى بيت المقدس . .

وعلى الأثر بدأت مذبحة من أدمى وأقسى المذابح فى التاريخ . . ومع أنه لم تتهيأ أرقام موثوق بها لمجموع المسلمين الذين لقوا حتفهم ، فقد ذكر ابن الأثير أن نحو سبعين ألفاً ذبحوا فى المسجد الأقصى وحده ، كانوا كلهم من غير المحاربين وبعضهم من الأئمة وعلماء الدين ، الذين التجئوا إلى ما يعد فى نظر قوانين الحرب الإسلامية حرماً آمناً . .

وقد أيد المؤرخون المسيحيون هذه الرواية ، وأفاض بعضهم فى وصف الفظائع التى ارتكبت من تفنن فى القتل والتمثيل بالجثث والتعذيب والحرق . .

ولقد استمرت هذه المجازر الدموية أسبوعاً كاملاً ، فى عملية تقتيل وتذبيح شملت النساء والأطفال والشيوخ والشباب والجنود والمدنيين والعرب واليهود ، لم يشهد لها التاريخ مثيلاً إلا فى الغزوات المغولية ، وبعد أن روى الصليبيون تعطشهم للدماء شرعوا فى تدعيم موقفهم . .

فالذين جاءوا فقط لاستعادة الأماكن المسيحية المقدسة لسيطرة المسيحيين ما لبثوا أن قفلوا عائدين إلى بلادهم . . ولكن عدداً وافراً أقاموا واستقروا فى فلسطين ، ذلك لأنه من بين الجيش الجرار الذى لبى نداء البابا إريان ، جاء العديد من القادة وفى نيتهم وضع اليد على إمارات يحكمونها ، واستهدف البنادقة وأبناء جنوا تنمية مصالحهم التجارية ، فى حين كان الشغل الشاغل للدهماء منهم مجرد الفرار من الفاقة وقذارة العيش فى فرنسا وإيطاليا . .

وقد وقع الاختيار على جود فرى إف بوبون القائد العام الصليبى ليكون ملكاً على الدولة اللاتينية لبيت المقدس ، واقترن الاحتفال بتنصيبه بالاستيلاء على حيفا ويافا الساحليتين بمساعدة أسطول البندقية . . وتلت ذلك مذبحة بشعة أخرى حينما دعى سكان وحامية حيفا من قبل المنتصرين للتجمع حول صليب كملاذ للأمان ، ثم ذبحوا تذبيحاً . . ولقد استغرق العالم الإسلامى أربعين سنة أو أكثر لتعبئة جيوشه للتحرير ، ولكن هذه الفظائع ، وخاصة مذابح بيت المقدس التى ارتكبت فى شهر رمضان المعظم ، لم تجد قط سبيلها إلى النسيان أو الصفح من جانب العالم الإسلامى كافة . .

ولكن الإسلام نهض بعد ذلك على يد الأتراك العثمانيون الذين استطاعوا فتح جنوب شرق أوربا ، ثم سيطروا على العالم العربى إلا أنه سرعان ما خيم على العالم العربى الركود فى مختلف مجالات الحياة . . وظلت الدول الخاضعة لها تعانى من كثرة الضرائب ، والتخلف الحضارى إلى أن تهاوت معظم هذه الدول على يد الاستعمار الغربى الذى قسم العالم الإسلامى فيما بينه وبين نفسه . .

فقد وقع العالم العربى الإسلامى تحت السيطرة الإنجليزية والفرنسية وظلت بعد ذلك تكافح المستعمرين على شكل ثورات حينا ، وبالمفاوضات حيناً آخر . وكانت أشد هذه الثورات مقاومة مصر للحملة الفرنسية التى كان يقودها نابليون بونابرت . . صحيح أن هذه الحملة وإن كانت قد جاءت إلى مصر لأسباب استعمارية ، ولقطع طريق الهند على الإنجليز ، إلا أن هذه الحملة اصطحبت معها علماء فى مختلف التخصصات ، وحملوا معهم المطبعة واكتشفوا حجر رشيد وبذلك أمكن حل ألغاز اللغة المصرية القديمة . . وكان ذلك بمثابة الانطلاق لمصر نحو عصور التنوير ، والأخذ بأسباب العلم والتقدم . . ومد الجسور بين مصر وبين أوربا ، مما أدى إلى الانطلاق نحو حضارة العصر أو الحضارة الغربية ، تلك الحضارة التى كانت فى الأصل تدين للحضارة الإسلامية بالكثير ، فهى كما يقولون بضاعتنا ردت إلينا . . بل إن العلم فى هذا العصر أصبح عالمياً . . أى ليس له صبغة خاصة . . ولكن يشترك فيه كل البشر من كل الجنسيات والديانات . .

فالعلم لا دين له . . والأخذ به وبأسبابه مما يشجع عليه الإسلام .

ولكن هل معنى ذلك أننا فقدنا القدرة على الإبداع وعلى الابتكار وأننا نأخذ كل شيء من الغرب ؟

بالطبع وإن كان العالم الإسلامى يقع فى دائرة العالم الثالث ـ للأسف ـ وأن عليه أن يأخذ بأسباب التقدم العلمى . . فإن عليه أن ينهض بسابق ظله ليصل إلى تكنولوجيا العصر ، وحضارة العصر ، وإلا عاش فى مكانة سفلى يأباها عليه دينه . . هذا الدين الذى يحثنا على فهم أسرار خلق الله . . وهذا لا يأتى إلا بالعلم بمقاييس العصر الذى نعيش فيه . . وإذا كانت الحضارة الغربية المعاصرة قد اهتمت اهتماماً شديداً بالمادة ، حتى كادت تنسى رحيق الروح ، فإن هذا هو الدور الذى يجب أن ينهض به المسلمون اليوم . . أن يسيروا وهم فى طريق التقدم بسلاح العلم دون أن ينسوا الروح . . أى علينا أن نحلق بجناحين . . جناح العلم وجناح الدين حتى لا نعانى مما يعانى منه العالم الغربى المعاصر . . من العقد النفسية التى تهد كيان أفراده ، ومن انتشار القلق والضياع والشعور بعدم الاستقرار . . كما أن الإنسان فى ظل الحضارة الصناعية فقد ذاتيته . .

فالإنسان مجرد (ترس) فى آلة أكبر منه ، وهى المجتمع . . مما جعل الإنسان يعيش فى غربة مع نفسه . . ومع الآخرين . . بل لقد انبرى يصف الآخرين بأنهم « الجحيم » كما أعلن الفيلسوف الوجودى سارتر . .

بل إننا نرى عالماً كبيراً حائزاً على جائزة نوبل وهو « شفيتزر » يلعن حضارة الغرب المعاصرة ويهرب إلى إفريقيا وينشىء مستشفى للجذام ويعود إلى إفريقية حيث الفطرة التى لم تدنسها عقد الغرب على حد تعبيره . .

ولكن الإسلام حل هذه المعادلة الصعبة . . فالإنسان لا ينبغى أن يعمل من أجل دنياه فقط . . أن تصبح المادة كل همه . . ولكن وهو يعمل لدنياه لا ينبغى أن ينسى أخراه . . أو على حد تعبير الإمام على رضى الله عنه : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » . .

ولقد برزت فى عالمنا الإسلامى على ضوء هذه المتغيرات اتجاهات فكرية كثيرة . . هناك من ينادى بمد الجسور إلى الغرب ونكون عصريين بالمفهوم الأوربى . .

وهناك من يدعو إلى العودة إلى التراث نستلهمه لخير المستقبل بالاستعانة بأهم ما فيه من إيجابيات واستبعاد السلبيات . .

وهناك من ينادى بأن الأخذ بالتراث لا يتنافى مع الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة ، وبرز على السطح صراع بين من يقولون بأن التقدم ينبع من تمسكنا بالدين وقيمه وتعاليمه . . وبين من يطلقون على أنفسهم بالعلمانيين الذين ينادون بفصل الدين عن الدنيا . . وهذه تستحق وقفة لأنها القضية الساخنة ، أو كما يقولون هى قضية الساعة . .

١٢

الهــوية الاســلامية

« أوصيـك بتقـوى الله . . فهى رأس الأمر كله » . .

[حــديث شــريف]

□ ١٢ □

الهـــوية الاســـلامية

ليس هناك دين كالإسلام استطاع أن يخلق الشخصية الإنسانية المتكاملة . . الشخصية التى تعمل من أجل الدين والدنيا . . فهو دين الوسطية . . ليس فى الإسلام تطرف ، وليس فى الإسلام تعصب . . ولكن المؤمن الحقيقى هو الذى يعمل لدينه ودنياه فى نفس الوقت . . وليس فى ديننـا ألغـاز تستعصى على الفهم . . ولكن عظمة الإسلام تكمن فى بساطته ووضوحه . . ولنضرب مثلاً يعطى صورة لما ينبغى أن يكون عليه المسلم من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام . .

ذات يوم أقدم أبو ذر إلى المسجد ورسول الله عليه صلوات الله وسلامه جالس وحده ، فجلس إليه فقال الرسول :

ـ يا أبا ذر إن للمسجد تحية وإن تحيته ركعتان ، فقم فاركعهما .

فقام أبو ذر وصلى ركعتى تحية المسجد ، ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال :

ـ يا رسول الله إنك أمرتنى بالصلاة ، فما الصلاة ؟

ـ من موضوع استكثر أو استقل . .

ـ يا رسول الله فأى الأعمال أفضل ؟

ـ إيمان بالله عز وجل وجهاد فى سبيله . .

ـ فأى المؤمنين أكملهم إيماناً ؟

ـ أحسنهم خلقاً . .

ـ يا رسول الله فأى المؤمنين أسلم ؟

ـ من سلم الناس من لسانه ويده . .

ـ يا رسول الله فأى الهجرة أفضل ؟

ـ من هجر السيئات . .

ـ يا رسول الله فأى الصلاة أفضل ؟

ـ طـول القنوت . .

ـ يا رسول الله فما الصيام ؟

ـ فرض مجزى وعند الله أضعاف كثيرة .

ـ يا رسول الله فأى الجهاد أفضل ؟

ـ من عقر جواده وأهريق دمه .

ـ يا رسول الله فأى الرقاب أفضل ؟

ـ أغلاها وأنفسها عند ربها . .

ـ يا رسول الله فأى الصدقة أفضل ؟

ـ جهد من مقل يسر إلى فقير . .

ـ فأى آية مما أنزل الله عز وجل عليك أعظم ؟

ـ آية الكرسى يا أبا ذر ، ما السموات السبع مع العرش إلا كحلقة فى أرض فلاة . .

ـ كم كتاباً أنزل الله ؟

ـ مائـة كتاب وأربعة كتب : أنزل على شيث خمسون صحيفة ، وأنزل على نوح ثلاثون صحيفة ، وأنزل على إبراهيم عشر صحائف ، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف ، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان .

ـ يا رسول الله فما كانت صحف إبراهيم ؟

ـ كانت أمثالاً كلها : « أيها الملك المسلط المبتلى المغرور فإننى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ، ولكن بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم فإنى لا أردها ولو كانت من كافر » . .

وكان فيها أمثال على العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن تكون له ساعات : ساعة يناجى فيها ربه عز وجل ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفكر فيها فى صنع الله عز وجل ، وساعة يخلو فيها بها جنه من المطعم والمشرب وعلى العاقل ألا يكون ظاعناً إلا لثلاث : تزود لماء أو فرقة

لمعاش أو لذة فى غير محرم ، وعلى العاقل أن يكون بصيراً لزمانه مقبلاً على شانه حافظاً للسانه . . ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه . .

ـ يا رسول الله فيما كانت صحف موسى عليه السلام ؟

ـ كانت عبرا كلها : « عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح . . عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك ، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو يغضب . . عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها . . عجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم لا يعمل » . .

ـ يا رسول الله أوصنى ؟

ـ أوصيك بتقوى الله فهى رأس الأمر كله . .

ـ يا رسول الله زدنى ؟

ـ عليك بتلاوة القرآن فهونور لك فى الأرض وذكر لك فى السماء .

ـ يا رسول الله زدنى ؟

ـ إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه . .

ـ يا رسول الله زدنى ؟

ـ عليك بالصمت إلا من ذكر ، فإنه لمطردة للشيطان عنك وعون لك على أمر دينك . .

ـ يا رسول الله زدنى ؟

ـ أحب المساكين وجالسهم . .

ـ يا رسول الله زدنى ؟

ـ انظر إلى من تحتك ولا تنظر إلى من فوقك فإنه أجدر ألا تزدرى نعمة الله عندك . .

ـ يا رسول الله زدنى ؟

ـ صل قرابتك وإن قطعوك . .

ـ يا رسول الله زدنى ؟

ـ لا تخش فى الله لومة لائم . .

ـ يا رسول الله زدنى . .

ـ قل الحق ولو كان مراً . .

ـ يا رسول الله زدني ؟

ـ يردك عن الناس ، ما تعرف من نفسك ولا تجد عليهم فيما تأتي ، وكفى بك عيباً أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك أو تجد عليهم فيما تأتي . .

ثم ضرب بيده على صدر أبي ذر وقال :

ـ يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ، ولا ورع كالكف ، ولا حسن كحسن الخلق .

هذا الحديث الجامع المانع كما يقولون يعطى صورة لما ينبغي أن يكون عليه المسلم . . فهو لا يخشى إلا الله . . وما دام لا يخشى إلا الله فلا معنى للخوف من بشر أياً كان وضعه ما دام هو يسير على نهج قويم . . لأن الأرزاق بيد الله ، والخير بيد الله ، ولا يصاب الإنسان إلا بشيء قد كتبه الله . . فلا معنى للضعف أمام سلطان جائر ، أو ظالم . . بل إن الإنسان يواجه الدنيا كلها ما دام يتمتع بخلق الإسلام . . بهذا المنهج ساد المسلمون ، ولكنهم عندما أصبحت الدنيا كل همهم . . دب إلى كيانهم الخوف والخور . . ولم يعودوا يتمثلون بجانب توكلهم على الله بالأخذ بالأسباب فانحدروا حضارياً . . وأصبح سادة الأمس عبيد عالم ينطلق يسابق ظله لسبر أغوار الفضاء .

ولم يعد عندنا ابن رشد ولا الفارابي . . ولا أصبح عندنا ابن الهيثم ولا ابن خلدون . . وأصبحنا ضيوفاً على موائد الغرب العلمية ، بل أصبح العالم الإسلامي المعاصر كله يقع للأسف تحت دائرة العالم الثالث .

وعندما يبرز تساؤل : ما السبب ؟

يجيب البعض : لأننا أدرنا ظهرنا للدين الحنيف ، وسقط منا السلاح الذي سدنا به العالم . . والسلاح هو الإسلام بقيمه ومبادئه وشريعته .

ويجيب البعض الآخر بأنه قد تاه منا الطريق عندما أدرنا ظهورنا لحضارة العصر . . وحضارة العصر هي حضارة أوربا ولا سبيل إلى التقدم إلا بإقامة الجسور بيننا وبين هذه الحضارة ، لأنه لا يمكن أن نعود إلى تراث جاوزته الإنسانية . . وهؤلاء نسوا أن الذين يقولون بالعودة إلى الإسلام إنما يقولون بالعودة إلى روح الإسلام وقوته الدافعة للانطلاق في كل المجالات ، لأن الإسلام يحض على ذلك . . وليس معنى العودة إلى أيام المجد الإسلامي أن نحارب بالسيوف التي كان يحارب بها الأجداد في عصر الذرة والإلكترون وغزو الفضاء . .

فالعلم لا دين له . . والأخذ به من صميم الفكر الإسلامي . . فالعودة إلى الإسلام ليست هي التمسك بخرافات يلعنها الإسلام . . كما نرى بعض ضيقي الأفق الذين يحرمون من دراسة

الطب وينادون بعدم دراسة العلوم الحديثة بحجة أن هذه العلوم ليست من العلوم الدينية . . بينما أجدادنا الذين يطالبوننا هؤلاء بالقدوة بهم درسوا كل علوم عصرهم ، وبالتالى فمن حقنا أن ندرس علوم عصرنا . . حتى نكون على مستوى العصر . . دون أن ننسى فى غمرة حماستنا للعلم قيم الروح التى تكون دافعاً نحو حياة أفضل . . ومستقبل أفضل . . وغداً يتسم بالتقدم العلمى فى ظل التألق الروحى إن صح التعبير . . أى لا ننسى هويتنا الإسلامية بكل مقوماتها تحت أى شعار براق . .

١٣

نحو مشارف المستقبل

« أعتقد أن السبب المباشر لظهور التطرف هو انصراف المسلمين عن التطبيق العقلى لأحكام الإسلام » . . .

« الشيخ جاد الحق على جاد الحق »
[شيخ الأزهر]

□ ١٣ □

نحــو مشــارف المستقبــل

ما يدور الآن هو هذا التساؤل : ما وسيلتنا إلى القوة والتقدم والحضارة التى كانت لأسلافنا، هل هى بالسير على نهج هؤلاء الذين كانت أيامهم انتصارا للإسلام ، وكيف تكون هذه العودة السلفية ؟

مع أن العصر غير العصر ، والظروف غير الظروف . . فهذه استحالة ، ولأن الإسلام به ثوابت ومتغيرات . . فإن المتغيرات تلك هى التى يجب أن تكون على مستوى العصر ، وتأخذ من العصور الذهبية للإسلام تمسكها بقيم الدين الحنيف ، فتتمسك بذلك ، ويكون هذا الدافع الروحى دافعاً لنا للتمسك بالعفة والطهارة والقيم الرفيعة والأخلاق السامية ، وهذا ما يجعل للحياة طعماً . . فلا نصبح عبيداً للمادة . .

والشريعة الإسلامية لم تجىء لعصر معين دون عصر آخر ، ولكن جاءت لكل العصور . . وفى هذه الشريعة ثوابت وهى الأعمدة الرئيسية لحياة آمنة مستقرة ، كما أن بها من الفروع ما يجعل الاجتهاد وسيلة لفتح أبواب التجديد على مصراعيها لتكون على مستوى العصر ، وخاصة أن الإسلام وهو يحث على العلم والبحث والاجتهاد ، ليس من صفاته الجمود . . أو التفسيرات المتحجرة . . وربما لمناداة البعض بضرورة التمسك بالدين فى أمور دنيانا يخشون مما حدث لأوربا فى العصور الوسطى ، وما فرضته الكنيسة من جمود ، ومحاصرتها التقدم العلمى ، مما جعل المستنيرين فى أوربا ينادون بفصل الدين عن الدولة . . خوفاً من أن يتحول الحكم الدينى إلى حكم ثيوقراطى ، هذا الحكم الذى كان سبباً فى إعاقة التقدم فى أوربا . .

والذين ينادون اليوم بفصل الدين عن الدولة أو هؤلاء الذين يدعون إلى العلمانية هم الذين يخشون أن يتحول الدين إلى أداة تخلف وجمود . . وخاصة عندما يفسرون الدين تفسيراً على هواهم ، وفى هذه الحالة يمكن اتهام المخالفين لآرائهم بالكفر . . والإلحاد . . والزندقة . . وفى هذا حجر على الفكر لأن التفسير أى تفسير إنما هو اجتهاد بشرى يخطىء ويصيب .

ولكن الإسلام يختلف عن المسيحية ، فليس فى الإسلام كما قلنا حجر على العقول . .

ولا يمكن أن نحصره فى مجرد العبادة ، ونبعده عن مجالات التوجيه فى المجالات المختلفة كالعلم والاقتصاد والسياسة والتربية وغيرها من العلوم الإنسانية . . حتى أن البعض قد تصور أن العلمانى هو اللادينى . . أوعلى الأقل ربط بين هذه الدعوة وبين عدم الإيمان بقدرة الدين ، وبعضهم يصرح بذلك صراحة (فماندن) يرى أن العلمانية تعنى فصل كل ما هو دينى عن كل ما هو دنيوى . .

ودعاة العلمانية هؤلاء ينسون فى غمرة مجادلاتهم العقيمة أن قيام الدولة ضرورة يحتمها وجود الدين نفسه لأنه لا دين بلا دولة تحمى أتباعه . . وتحافظ على حقوقه التى جاء بها هذا الدين ، وإلا فكيف يمكن أن تقام الحدود التى يقوم بها ولى الأمر ، ومن الذى يجمع الزكاة التى هى فرض إسلامى ، وإلا فلماذا قام الصديق ببعد نظره السياسى بالقضاء على مانعى الزكاة مع أنهم مؤمنون موحدون ، بل كيف كان سينتشر الإسلام نفسه بين مشارق الأرض ومغاربها لو لم تقم على رأسه الدولة التى تنظم شئون المجتمع وتوجهه سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ؟ هل كان يمكن أن يقوم أفراد أو جماعة من الناس يدفعهم حب دينهم أوعقيدتهم إلى نشر الدين فى أنحاء الدنيا . . بلا دولة . . ولا خلافة . . ولا حاكم . . ومن هنا وجه الغرابة فى الذين يقولون أن الإسلام دين وليس دولة . .

وإذا كان البعض يستند فى مناداته بالعلمانية إلى أن الرسول لم يكن ملكاً . . ولا جاء يمهد لملك . . بل هو نبى بشر يدعو لله بالحسنى . . فقد نسى هؤلاء فى غفلة تفكيرهم أن النبى بعد الهجرة . . كوّن دولة ـ وإن لم يطلق هذا الاسم عليها مباشرة ـ وكان هو على رأسها يوجه . . ويرسم سياستها . . ويقود المعارك المختلفة حتى انتصر الإسلام فى كل بقاع شبه الجزيرة العربية ، وكان دستور هذه الدولة القرآن الكريم والسنة المطهرة . .

ولأنه نبى بشر . . ولأنه سيلحق بربه فقد ترك القرآن والسنة نبراساً لمن يريد أن يحيا حياة طيبة فى دنياه ، ويلقى الجزاء الأوفى فى أخراه .

ولم يكن من المنطقى ألا يقوم على هذا الأمر خليفة يحكم . . أى قيام دولة لها سلطات . . ومن هنا فقد كانت الخلافة الراشدة . . التى حكمت شبه الجزيرة العربية ، وانطلقت بالإسلام خارج الحدود . . لتقضى على إمبراطوريتى الفرس والرومان . . فالإسلام إذن دين ودولة . .

والإسلام ليس هو الحاكم . . بمعنى أن الحاكم إذا حاد عن طريق الإسلام ، أوكان فى سلوكه ما يتنافى مع الدين ، فليس هذا عيب الإسلام ولكن عيب الحاكم . .

صحيح أن الحاكم عندما يكون قدوة حسنة ، يتوق الجميع أن يكونوا على مثاله . . أوعلى

الأقل تزدهر به الحياة كما نرى فى خلافة (الشيخين) وفى عهد عمر بن عبد العزيز إلا أن هناك فرقاً بين الحاكم والإسلام . . ومن هنا فالذين يحاولون إثبات أن الإسلام لا يصلح للحكم متعللين بما حدث فى الدولة الإسلامية من انقسامات . . ومعارك . . ودماء ينسون أن العيب ليس فى الإسلام ، ولكن فى الذين انحرفوا عن الإسلام . .

وفى عصورنا الحديثة نرى هناك من الحكام من يدوس على شعبه . . ويرهقه ، ويلهبه بسوط عذاب . . نرى هذه النماذج فى الشرق والغرب على السواء ، كل ذلك يحدث فى ظل قوانين ودساتير تلعن الطغاة والطغيان . . ومع ذلك فهؤلاء طغوا وبغوا وجعلوا من أنفسهم أشخاصاً فوق القانون وفوق الدستور ، ولم يكن العيب بالطبع عيب هذه الدساتير وما يتبعها من قوانين ، ولكن كان العيب فى الطغاة أنفسهم ، الذين جعلوا من كرسى السلطة أداة للقهر والطغيان للحفاظ على كراسى السلطة . . فمن الغبن إذن أو من الجهل الفاضح . . أن نلغى القانون لأن هناك من ينتهك القانون . .

فليس العيب ـ منطقياً ـ فيما حدث على طول التاريخ الإسلامى من انتهاكات للشريعة الإسلامية والمنهج الإسلامى فى الإسلام ، ولكن فى هؤلاء الذين اتخذوا من الإسلام وسيلة لتحقيق أطماع دنيوية ونفوذ سلطوى . .

وسعد زغلول بحنكته السياسية ، وخبرته وتعمقه يقول : « إن الإسلام دين مدنى ، ودين حكم ، ولا يزال حتى اليوم مصدر الأمن والطمأنينة للذين يحكمون بالإسلام ، وإن القول بالعلمانية هو هدم لقواعد الإسلام الراسخة » . .

ولعله هنا يحضرنا التساؤل الذى سأله الفيلسوف محمد إقبال وهو يضع يده على مشكلات العصر ، والدور الذى يجب أن يقوم به الإسلام .

إنه يسأل : هل تستطيع أن نحتفظ بالإسلام من حيث هو نظام مثالى للأخلاق ، وأن نرفضه كنظام سياسى ، ونستعيض عنه بسياسة قومية لا نفسح فيه مجالاً للعامل الدينى . .؟

ويجيب : ليس الدين مجرد تجربة خاصة ، تجرى داخل المرء دون أن يكون لها تأثير فى محيطه الاجتماعى . إن الإسلام تجربة شخصية مفضية إلى نظام اجتماعى تشتق منه الأصول اللازمة لنظام سياسى . . إن المثل الدينية فى الإسلام ، متصلة اتصالاً وثيقاً بالنظام الاجتماعى الذى انبعث منه ، وإذا كان قيام نظام سياسى على قواعد قومية صرفة من شأنه أن يخرج مبادىء التضامن الإسلامى فهو أمر لا يمكن أن يتصوره مسلم . .

ويرى إقبال أن ديمقراطية الإسلام تتسع لكل الإمكانيات الاقتصادية بل هى مبدأ روحى قائم على أن كل كائن بشرى ، إنما هو مركز لقوة كامنة نستطيع إخراجها بأن يتعهد فى كل منها ضرباً من السجايا الخلقية . .

ويقول إقبال أيضاً :

« إن معضلة الخبـز تزداد حدة ، لكننا نجد ، لحسن الحظ حلاً موفقاً لها بتطبيق شريعة الإسـلام ، وبتـوسيع أحكـامها على ضوء الفكر الحديث ، لقد توصلت بعد دراستى للشريعة الإسلامية دراسة دقيقة طويلة إلى أنه حيث يتيسر فهم هذه الشريعة فهماً جيداً ويتم تطبيقها كما ينبغى فإن حق العيش يغدو مضموناً للجميع » . .

فالإسلام ومنهجه قادر على أن يخلق أمة متماسكة قوية تلعب دورها فى الحياة . . وقد كانت القوة الكامنة فى الإسلام هى التى جعلته ينطلق عبر قارات الدنيا أو على حد تعبير كارليل فى كتابه « الأبطال » :

« لقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلام إلى النور ، وأحيا به من العرب أمة هامدة ، وأرضاً جامدة . . وهل كانت إلا فئة خامدة فقيرة ، فإذا الخمول قد استحال شهرة ، والخمود نباهة ، والضعة رفعة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقاً وسع نوره الأنحاء وعم ضوءه الأرجاء وعقد شعاعه الشمال والجنوب والمشرق بالمغرب ، وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث وقد أصبح لدولة العرب رجل فى الهند ورجل فى الأندلس ، وأشرقت دراسة الإسلام حقباً عديدة ودهوراً مديدة بنور الحق والهدى على نصف المعمورة » . .

فليس من المعقول أن نسمع من يهاجم الإسلام كشريعة لا تصلح للحياة المعاصرة بحجة الخـوف من ثيوقراطية الحاكم الإسلامى . . بينما الإسلام ليس فيه هذه الثيوقراطية التى كانت موجودة فى ظل تسلط الكنيسة فى القرون الوسطى . . فالحكم الإسلامى واضح . .

يقـول الشيخ محمـد عبـده : « الخليفـة عنـد المسلمـين ليس بالمعصـوم ، ولا هو مهبط الوحى . . ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة » . .

وفى ظل الحضـارة الإسلامية عند ازدهارها لم نجد هذا التعنت والجمود والتخلف الذى يحذرنا منه دعاة العلمانية ، بل كانت الصورة كما تقول المستشرقة الألمانية « سيجريد هونكة » فى كتابها (شمس الله تسطع على الغرب) والتى تتحدث فيه عن أثر حضارة الإسلام على العالم وعلى أوربا فتقول :

« لو أردنا دليلاً على مدى الهوة العميقة التى كانت تفصل الشرق عن الغرب لكفانا أن نعرف أن نسبة ٩٥٪ على الأقل من سكان الغرب فى القرون التاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر كانوا لا يستطيعون القراءة والكتابة » .

وبينما كان شارل الأكبر يجهد نفسه فى شيخوخته لتعلم القراءة والكتابة . . وفى الأديرة يندر بين الكهنـة من يستـطيع الإمســاك بالقلم إلى درجة أنه فى عام ١٢٩١ لم يكن فى دير القديس

جالينوس من الكهنة والرهبان من يستطيع حل الخط ، بينما كان هذا كله يحدث فى الغرب ، كانت آلاف مؤلفة من المدارس فى القرى والمدن ـ فى العالم الإسلامى ـ تستقبل ملايين البنين والبنات ، وكان الدافع إلى هذا رغبتهم الصادقة فى أن يكونوا مسلمين حقاً كما يجب أن يكون المسلم . .

وهنا تتسع الهوة بين الشرق والغرب أيضا ، فالكتاب المقدس لا يستطيه أحد إليه سبيلا ما عدا الكهنة ، والمواعظ التى تلقى باللاتينية لم يكن الشعب يفهمها ، على خلاف ذلك كانت الحال فى العالم الإسلامى إذ جعلت الدولة من التعليم واجبا ترعاه .

فالأطفال من مختلف الطبقات يتعلمون التعليم الأولى ، وأمكن للفقراء أن يعلموا أولادهم مجانا ، ولم يكن التعليم مقتصراً على مراحله الأولى . . وإنما أنشىء التعليم التالى لكل طبقات الشعب مجانياً ، وكان الطلبة يتناولون طعامهم مجاناً ، ويتقاضون مرتباً صغيراً ، ويسكنون فى الأدوار العليا فى المدرسة دون مقابل .

من هذا يتضح أن الإسلام أعطى العالم كثيراً فى كل المجالات العلمية والثقافية والاقتصادية . . وأن الإنسان فى ظل الحكم الإسلامى الذى يتمثل فيه إنسانية الإنسان وتمتعه بالحرية والمساواة ، وبالحكم المبنى على الشورى . . فى ظل كل هذا تقدم المسلمون ، وازدهرت حضارتهم . . باعتراف مفكرى الغرب نفسه . .

وعلينا أن نعرف أن سر قوتنا فى تمسكنا بكتاب الله وسنة رسوله ، ولا نأبه لصيحات المتأثرين بالفكر الغربى ، وعقل خاو تماماً عن معرفة أبسط أمور دينه . . فصيحات هؤلاء أشبه بالطبل الأجوف . . فالإسلام دين ودولة ، أو على حد تعبير الأستاذ خالد محمد خالد : « كان الرسول ﷺ يدرك أن بناء دولة الإسلام واستمرارها جزء من مهمته كنبى ورسول » . .

بل لعله كان يرى ذلك جزءاً من مهام الأنبياء والمرسلين أيضاً ، فعليه نزلت الآية الكريمة التى خاطب الله بها نبيه داود عليه السلام : « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » . .

فالله سبحانه وتعالى يخاطب « داود » نبيه بأنه خليفته فى الأرض يسوس أمور قومه ، وينشر العدل ، ويحكم بين الناس بالحق ، أفلا يكون (محمد) عليه السلام كذلك نبيَّ دعوة ، وقائد دولة وأمة ؟

والإسلام باعتباره خاتم الأديان وصفوة الشرائع ، لا يمكن أن يحقق ذاته إلا بإرساء قواعد الدولة التى تحقق أهداف هذا الدين الخاتم .

ويقول الأستاذ خالد محمد خالد فى نفس الكتاب (الدولة فى الإسلام) : « علينا ـ نحن المسلمين ـ أن نعيد القرآن العظيم إلى مكانه العالى فى قلوبنا وحياتنا ، ونشد على راية الإسلام

بسـواعـد قوية متفـانية . . وعلينـا أن نفيد من كل فرص التقدم النظيف دون أن نسلم رقابنا للأغلال ، وديننا للضياع ، وروحانيته للجفاف » . .

علينا أن نذكر أن دورنا مع حركة التاريخ وصنع الحضارة لا يزال قائماً وأن الإسلام الذى نحمل لواءه لم ينته ، ولن ينتهى دوره فى ترشيد الحياة وهداية البشر ، كما لن تنتهى حاجة البشرية إليه ، لأن عظمته الفريدة ماثلة فى أنه يقدم مع حضارة المادة حضارة الروح . .

وأخيراً علينا أن نعمق إيماننا بأن الإسلام دين ودولة ، حق وقوة ، ثقافة وحضارة ، عبادة وسياسة . .

وأذكـر أن حواراً دار بينى وبين مفكرنا الدكتور زكى نجيب محمود حول الإسلام والفكر الإسلامى ولماذا لم يظهر فيلسوف مسلم منذ ابن خلدون ؟ وما الذى يمكن أن نقدمه الآن للغرب ؟

يومها قال :

« لم يظهر فيلسوف عربى أو فيلسوف مسلم على المستوى العالمى منذ ابن رشد ، وإذا أردنا أن نعد ابن خلدون فيلسوفاً على أساس أن له فلسفة فى التاريخ . . فلنقل أنه لم يظهر فيلسوف عربى أو مسلم كبير منذ ابن خلدون . . أى منذ القرن الخامس عشر . . ونحن إذ نقول القرن الخامس عشر . . فيجب أن نتذكر أن ذلك القرن يشير إلى بدايات النهضة الأدبية . . ومنذ تلك النهضة . . أصبح العلم هو مدار التقدم فى أدبنا . . ووقف التقدم بمعاييره القديمة عند العرب وعنـد المسلمـين صفـة عامـة . . ثم حدث أنـه كلما ازداد الغرب تقدماً . . وازداد قوة بعلومه الجـديدة . . وأصبح العرب والمسلمون بصفة عامة يرتقون بمقدار ما يأخذونه من ذلك الغرب لا فرق فى ذلك بين علم أو فلسفة أوحتى النظم . . كنظم التعليم ونظم الحكم ونظم الاقتصاد وغيرها » . .

فموقفنا منذ ذلك التاريخ موقف الذى يأخذ ولا يعطى . . وأصبح كل ما نطمع فيه هو أن نستطيع الأخذ . . وأن نستطيع هضم ما نأخذه . . لنجعله يسرى فى حياتنا العلمية . . وأن هذه الساعة التى نكتب فيها هذه الكلمات هذا هو صميم الموقف . .

وإذا كان من واجبنا أن نسهم بشىء إيجابى فى حياة هذا العصر فظنى هو أن الأمل أصبح صعباً فى أن يجىء هذا الإسهام من زاوية العلم والصناعة وما إليهما . . ولكن يبقى لنا مجال فسيح نستطيع أن نجعله موضع إسهامنا وهو المجال الروحى . . لأن الثقافة الأوربية وما تفرع منها قبل هذا الواقع . . وما بعده . . فلو أننا ركزنا دورنا على إظهار هذا الجانب الذى يجاوز الواقع ويعد ظهوره . . كنا بذلك نقدم خدمة تفيد الإنسان وتثبت وجودنا . .

وتبقـــى كلمــــة

الإسلام دين الله . .

وسيظل هذا الدين نور هداية للبشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . .

والإسلام يملك كل المقومات لسعادة الإنسان دنيا وأخرى . .

دنيا بما فيه من تشريعات ليست من صنع البشر ولكن جاءت من خالق الوجود الذى يعرف ما خلق . .

وفيه من الأخلاقيات ما يرفع شأن المسلم ويرتفع بوجدانياته ، ويرفع روحانياته بما يجعله يسمـو على الصغـائـر . . ويتجـه نحـو المثـل العليا . . وهو دين الوسط . . فليس فيه تطرف ولا تعصب . . بل هو دين الفطرة والبساطة .

وفى هذا المجال أذكر حواراً طويلاً بينى وبين فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشيخ جاد الحق على جاد الحق ، وقد سألته سؤالا حول مستقبل العالم الإسلامى وكيف يمكن النهوض به . .

يومها قال لى فضيلته :

ـ لا شك أن حال العـالم الإسلامى والسياسية والخلاف الواقع بين حكوماته أمر يحزن له كل مسلم ، فإن أمة قد أحياها الله بمقومات الوحدة التى لا تفصم ، فلها كتاب واحد هو القرآن صانه الله وحفظه من التغيير والتبديل . . ولها سنة رسول الله ﷺ وهى مدونة محققة ، ولها تراث علمى قامت عليه ، ومن جاء بعدهم واصلوا العلم ويشرحونه . . ثروة نعم بها غيرنا ، وامتدت إلى ما وراء حدود الأمة الإسلامية فازدهرت بها بلاد أخرى . . أمة حباها الله بكل هذا انصرفت اليوم إلى الخلاف والاختلاف والحرب فيما بينهم . . بل إنهم لا يكادون يعرفون أصول هذا الدين وأحكامه .

هذا هو الأمر الذى يؤسف له مع أن الإسلام كما قلت ، قد أوجد لأمته الروابط المتينة التى تذكرهم دائماً بوحدتهم ليحافظوا عليها ، أو ليست لهم قبلة واحدة يتجهون إليها خمس مرات فى اليوم والليلة ، أليسوا يصومون شهراً واحداً وهو شهر رمضان . . أليسوا يجتمعون فى الحج من كل جهات الأرض .

كل هذه العوامل التى تربط بين المسلمين ، لم تتوافر لأمة أخرى ولكن الاستعمار الذى أضل بلاد المسلمين منذ القرن الماضى ، زرع بينهم الخلافات والفتن ، وأحيا العصبيات الإقليمية

والعرقية ، فهذا فارسى وهذا عربى وهذا باكستانى وهذا هندى وأقام بينهم الحدود والفواصل الجغرافية . . وبذلك تشتتت وحدتهم . . ثم دفع إليهم بأفكار خبيثة تفرق جمعهم وتزيد الفرقة فيما بينهم ، تلك الأفكار التى تدفعهم إلى فلسفة أمور الدين ، وتحولهم عن أصولها . . فصاروا فرقاً وشيعاً . . فهذا شيعى وهذا سنى . . إلخ . .

والشيعة مذاهب شتى ، وأهل السنة مذاهب أخرى ، وعدو المسلمين يقوى بينهم ويحيى فى نفوسهم أسباب الفرقة التى لا أساس لها فى الإسلام ، ولعلنا نحن المسلمين نعود إلى رشدنا ونجمع أمرنا ، ونعود إلى التمسك بعوامل الوحدة التى قام عليها الإسلام منذ كان ، تلك العوامل التى عاش فى ظلالها المسلمون عصورهم الذهبية قدوة وعلماً وتشريعاً واقتصاداً ، فكانوا بحق أمة تحيطها العزة والقوة : عزة المؤمنين ، وقوة العدل . . فما كانوا ظلمة ، وما كانوا فجرة ، وإنما عاشوا مسلمين مسالمين يقيمون العدل والحق بين الناس . .

إننى أدعو شعوب الأمة الإسلامية أن تتغلب على هذه العوامل . . عوامل الفرقة . وأن تعمل على وقف هذه الخلافات والحروب ، التى أهلكت الكثير من آلاف شباب المسلمين ، وأحرقت أموالهم مع حاجاتهم إلى هذه الأموال وأولئك الشباب . . والله غالب على أمره . .

إن حركة التقريب بين المذاهب أمر ليس بالجديد ، فالثروة العلمية التى خلفها فقهاء المسلمين ، وما سمى بالفقه المقارن . . هذا النوع من تراثنا جمع أقوال فقهاء المذاهب ، أو قارن بينها على أساس الأدلة ، وانتهى أغلب الكتاب من فقهاء فى هذا المجال إلى الترجيح للقول صاحب الدليل القوى . . ونحن نعرف أن الخلاف بين المذاهب ليس خلافاً عقائدياً فى جملته ، وإنما هو خلاف فى الفهم والتحصيل والتأصيل للأحكام الفرعية التى جاءت نصوصها فى القرآن والسنة ظنية الأدلة كما يقول العلماء . .

فليست كثرة المذاهب الفقهية بسبب الاختلاف بين المسلمين ، وإنما اتخذها سبباً هؤلاء الذين ضلوا عن أصولها ، وأخطأوا فهمها . . فأقاموا بين المذاهب الفقهية الإسلامية حروباً فكرية ، بل وأحياناً حروباً دموية كما يشاع الآن أو يحصل فى بعض الجهات . والإسلام برىء من كل ذلك ، أما الفقهاء المجتهدون الذين نشأت هذه المذاهب تبعاً لأفكارهم فإنهم ما اختلفوا هذا الخلاف الحاد ، وما تقاتلوا وإنما كان الواحد منهم يقول :

« إذا صح الحديث فخذوا به واضربوا بقولى عرض الحائط . رجوعاً إلى الدليل الشرعى وعملاً به ، وليس تعصباً لرأى شخص قد يخطىء قائله ، ولو أن المسلمين اليوم ولهم مجامع علمية متعددة ، تقاربوا فى الفكر والفهم بواسطة هذه المجامع لأزالوا هذه الخلافات أو لتغلبوا عليها على الأقل » . .

ولعلنا نذكر أن عصر الدولة العباسية كان عصر الانفتاح العلمى والثقافى على الدول المجاورة ولا سيما بعد أن دخلت بعض بلاد الروم والفرس فى الإسلام وكانت ذات علوم وحضارة تفوق ما كان عليه العرب فى ذلك الوقت . ولقد انصرف الكثيرون من المسلمين فى هذا العصر إلى نقل علوم الفرس والروم . . وكانت الفلسفة أحد هذه الواردات وبسببها نشأت الفرق العقيدية و . . والفلسفية بين المسلمين . . وكانت المدارس التى ذكرتها فى السؤال . .

لكن الله يقيض للمسلمين من ينقى عقيدتهم ، ومن يدفع عنها غائلة تلك الفلسفات التى وفدت إليهم بمفاهيم تناقض العقيدة الإسلامية ، وكثرت الفتن فى ذلك الوقت كفتنة القول بخلق القرآن التى أوذى فيها الإمام أحمد ابن حنبل . .

وقام علم الكلام أو علم التوحيد ، وجرت أقلام العلماء بالكثير من المؤلفات التى تؤصل هذا العلم ، وتنقى العقيدة مما شاع وذاع من أمور فلسفية منقولة قد لا تتناسب مع صفاء العقيدة الإسلامية ، وانتهى ذلك الجدل الفلسفى إلى بطون الكتب أو نشأت فلسفة إسلامية تقوم على فكر نقى . . مستمد من أصول الإسلام ، ومن اجتهادات علمائه ، ولعل الإمام الغزالى كان أحد هؤلاء الذين انغمسوا فى هذه الفلسفة ، وكان له فى تأصيل الفلسفة الإسلامية قدم ثابتة ، وترك فى هذا الشأن كتباً قيمة . .

والفلسفة عند المسلمين إن كانت قد غلبت على أمرها بعد أن تواردت عليها فلسفات أخرى ونظريات اجتماعية اختلطت بها نشأت فى بيئات غير البيئة الإسلامية ، فنحن الآن فى حاجة إلى حراس لهذه الفلسفة يردون عنها الأفكار المرتدة . . وينقونها مما علق بها من أولئك الذين يريدون أن يسلبوا المسلمين كل مميزاتهم الفكرية والثقافية . .

وتحدث عن ظاهرة التطرف بين المسلمين فقال :

« لا شك أنه كما قلت قد بدت فى فترات متباعدة من تاريخ المسلمين حركات وصمت بالتطرف ، وأعتقد أن السبب المباشر لظهور التطرف هو انصراف المسلمين عن التطبيق الفعلى لأحكام الإسلام ، ففى الفترات التى يظهر فيها المسلمون بمظهر التخلى عن أحكام الإسلام ، يظهر بينهم هذا الفكر الذى يكون على طرف النقيض مع الحياة السائدة ، وإذا حللنا الفترات التى ظهر فيها التطرف على مدى حياة المسلمين فى أربعة عشر قرناً لوجدنا أن الفترات التى ظهر فيها التطرف كانت فترات محن أخلاقية ودينية ، وأن التطرف كان بمثابة الإنذار للمجتمع الإسلامى بضرورة العودة إلى الالتزام بأحكام الإسلام » . .

وهؤلاء المتطرفون إنما يأخذون جانب العنف أو الشدة أو التشديد ليلفتوا إليهم الأنظار ، ولعل المجتمعات الغربية قد ظهرت فيها هذه النوبات فى صور أخرى لا تمت إلى الدين أو التدين ، وإنما كانت تظهر بمظهر التخلص من كل القيود . . كحركات الهيبيز وغيرها . .

ولكن الأمة الإسلامية والدين فى ضميرها وعقيدتها ، حين تفىء أو تفيق من عقدتها إنما تعود إلى الإسلام ، ولا تخرج عنه ، وليس هذا تزكية لهؤلاء المتطرفين واعتبارهم قادة أو رواداً . . وإنما حركاتهم تعتبر إنذاراً للأمة بأن عليها أن تراجع نفسها وتعود إلى الإسلام علماً وعملاً ، تماماً كما يظهر المرض على عضو من أعضاء الجسد ، يكون هذا المرض منبهاً إلى ضرورة التداوى ، والبحث عن الدواء ، فهذا التطرف مرض نشأ فى جسم الأمة الإسلامية ينبغى مواجهته بالعلاج ، وليس العلاج إلا أحكام الإسلام . .

وبعـــــد :

فلقد طفنا رحلة فى غاية الثراء حول علامات الطريق وأهم المنعطفات فى التاريخ الإسلامى ، ورأينا كيف أن الصورة تبدو مشرقة حيناً ، ومظلمة حيناً آخر . . وأن الثوب الأبيض فى كثير من الأحيان يعلوه الغبار . .

ومن قراءة التاريخ نرى أمجاد الأمة الإسلامية وهزائمها . . عندما نتخذ من الدين تطبيقاً مستنيراً لحياتنا تصفو الحياة . . وتنطلق الأمال ، ويصبح للحياة معنى ، ويعيش الإنسان المسلم وهو يشعر أن فى قلبه نوراً يضىء له دروب الحياة . . وعندما تستهوينا الحياة ونغرق فى مادياتها ، وتلهينا دنيانا عن أخرانا وينخر فى عظامنا « سوس » الترف . . تضيق بنا الدنيا ، وتدور علينا الدوائر ، وتتوالى الهزائم ويجثم على أنفاسنا من لا يرحمنا . . ونعود من جديد نلوذ بالدين لعلنا نجد مخرجاً مما نحن فيه . . فالدين كان الدافع للتحرر والانطلاق فى كل عصور التاريخ الإسلامى منذ بدأ النداء الخالد (الله أكبر) مع الفتوحات الإسلامية الكبرى ، مروراً بحروب التتار والمغول والصليبيين حتى حرب التحرير والعبور فى عام ١٩٧٣ .

وإذا كنا اليوم نرى صحوة إسلامية ، فهذا يعنى أننا نتجه نحو النغمة الصحيحة فى محاولة البحث عن تحقيق هويتنا الإسلامية ، ولكن طريق الصحوة هذا محفوف بالمخاطر . . ولابد لكى نعبر الطريق نحو فهم مستنير للإسلام أن نعرف أن هذا الوصول يحتاج إلى وعى وفكر عميق ، ولا نفسر الإسلام حسب الأهواء . . ولا نفسره تفسيراً لا يستقيم مع العقل ولا المنطق . . وإلا فإن هذه الصحوة لا تكون صحوة بل نكسة !

فإذا كان الإسلام يحض على العلم ، فإننا نرى من يحارب العلم ، ويلجأ إلى الخرافة ويرى أن العلم مضاد للتقدم ، وهذا منتهى الجهل بالدين .

والإسلام الذى وصل إلى أماكن فى العالم لم تكن تخطر على بال ، وكان الدافع وراء هذا الانطلاق الهائل هو محاولة المسلمين الأوائل أن ينشروا نور الإسلام حتى لو ضحوا فى ذلك

بدمائهم ، واستشهدوا فى سبيل العقيدة . . وهؤلاء الأبرار فهموا الدين فهماً مستمداً من روح الكتاب والسنة ولم يتمسكوا بالشكليات . .

فالإسلام ليس مجرد التمسك بالزينات والشلكيات . . ليس جلباباً . . ومسبحة . . وذقناً طويلة أو قصيرة . . فكل هذه المظاهر كانت من سمات العصر . . وليست من صميم الإسلام . . لأن الإسـلام سلوك . . وصلة بين الله وعباده وأخلاقيات رفيعة . . ومعاملات تتمثل فيها قيم الإسلام بعدم غش الآخرين ، والوفاء بالعهود والعطف على الفقراء والمساكين ، ومساعدة من يحتاج إلى مساعدة . . بجانب العلاقة الخاصة بين المسلم وخالقه وإعلان عبوديته له سبحانه وتعالى بما فرضه عليه من فرائض . . من صلاة وصيام وزكاة . . وحج بيته لمن استطاع إلى ذلك سبيلا . .

أمـا أن نقف لنكفـر النـاس على حسب فهم خاطىء للإسـلام فهذا مما ينكره الإسلام ويرفضه . . فلا يعلم بالسرائر إلا الله . . ولا يعرف النيات سوى عالم الأسرار ، وليس من حق مسلم تكفير مسلم . . أو ازدراؤه . . فكل إنسان مسئول عن سلوكه .

ويـم يطبق كل إنسان مبادىء الدين الحنيف على نفسه وعلى أسرته . . فمن خلال هذه الصياغة للشخصية المسلمة على أسس مستنيرة من كتاب الله وسنة رسوله سوف يتكون المجتمع الإسـلامى القـادر على صياغـة القانون الذى يحكمه من خلال كتاب الله سنة رسوله بلا إراقة للدماء . . وبلا إرهاب . . وبلا تعصب غبى . . ويصبح المجتمع كله وقد أظله الأمن والأمان، وعاش الجميع تحت مظلة الحب الإسلامى . . « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . .

ويعيش الجميع فى كنف هذا المجتمع الإسلامى إخواناً متحابين . . وتحت هذه الراية يعيش المسلم وغـير المسلم فى تعاون على أساس أن الجميع يركبون قارباً واحداً نحو مستقبل واحد ، ومصير واحد . .

ولقـد عاش أهـل الكتـاب فى ظل الحكم الإسلامى فى مختلف عصور التاريخ يمارسون عقائدهم فى حرية تامة . . فالإسلام كفل حرية العقيدة للجميع . .

ولكن كيف يستطيع عقل مستنير يعيش فى حضارة تسابق ظلها وهى تحاول الكشف عن أسرار الحياة . . ومعرفة أسرار الوجود ـ وقد حثنا ديننا على ذلك ـ فى كل هذه الحضارة التى وضع الإنسـان معها أقدامه على أرض القمر ، وأرسل سفن الفضاء لتسبر أغوار الكون ،ويبحث فى أسرار الوراثة الهندسية ، نرى من يخرج علينا ليقول لنا أن دراسة الطب حرام ومحاولة معرفة الفضاء كفر . . والصعود على القمر خرافة . . بل هناك من ينكر حتى دوران الأرض ! هل يمكن أن نقول عن هؤلاء دعاة صحوة أم دعاة غفوة ! غفوة تؤدى بنا إلى مزيد من التخلف والتقهقر أو العودة إلى عصور الظلام . . بينما الإسلام هو التقدم . . وهو الحضارة . . وهو المعرفة .

هل يمكن أن نركب الجمل ، ونرفض ركوب الطائرة والسيارة ، لأنها لم تكن فى عهد الرسول !

لو كانت الطيارة . . والسيارة . . والتليفزيون . . والتليفون فى عهد الرسول . . لكانت كل هذه الوسائل من ضمن وسائل الإعلام الهائلة التى استخدمها عليه الصلاة والسلام لنشر الرسالة .

لابـد أن نفهم أن البحث عن جذورنا الإسلامية والتمسك بقيمنا الروحية لا تنسينا أن نعيش عصرنا بكل إنجازاته وتقدمه . . نعيش عصرنا بمفاهيم عصرنا العلمية ، ونحلق فى أجواء التقدم من خلال كل هذا دون أن ننسى أننا مسلمون وأن ديننا يفرض علينا البعد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن . . وأن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر . . وأن يكون إيماننا بالله واليوم الآخر دافعـاً لأن نراعى مراقبتـه لنـا فى كل شىء . . وحسـابـه لنا عن كل شىء . . لأنه هو العدل المطلق . . والخير المطلق . . والجمال المطلق . .

يوم نعى كل هذه الحقائق نكون قد اقتربنا من روح الإسلام . . ومن جوهر الإسلام . . وسوف يعود إلينا مجد هوى . . وتاريخ انقضى . . وازدهار اختفى فى دهاليز الزمن ، وحضارة انـدثرت فى زوايا النسيان . . وسوف تشرق شمس حياة جديدة . . ونشارك فى صنع الحياة ، ولا نكون عالة على الغرب . . بل نسير فى خط موازٍ له ، ونسبقه إلى مجالات لم تكن تخطر على بال أحد . . لأننا سنكون متفوقين عليه ، لأنه بجانب التقدم العادى الذى سوف نحققه ونشارك فيه الغرب ، سيكون لدينا ما لا تملكه هذه الحضارة الغربية ، وهو السمو الروحى . .

وحضـارة لها جنـاحـان تحلق بهما إلى آفـاق التقدم . . جناح التقدم المادى . . والسمو الروحى ، حضارة جدير بها أن تعيش ، وتسعد من يعيش تحت ظلالها . . وهذه هى الصحوة الحقيقية . . وهذا هو الفهم المستنير للإسلام . . ومن خلال هذا المناخ الإسلامى المستنير سوف تتمخض عن اجتهادات عظيمة . . ومفكرين كبار ، ورؤى مستنيرة لواقعنا المعاصر وما فيه من مستجـدات ومشكـلات . . وتنفسح المجالات لرؤية واضحة المعالم على كل مشكلات العصر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . . وتصبح لكل هذه المشكلات حلولها على ضوء هذا الفكر المستنير . .

ترى هل نعى كل هذا لنعـرف موضـع أقـدامنا ونرى على ضوئه مستقبلنا مع الأيام . . ولا نغرق فى جدل عقيم لا مبرر له . . ولا نتوه وسط سحابات السفسطة . . حتى يصبح لنا مكان تحت الشمس . . ولا نصبح مجرد كائنات بلا هوية تتحرك فى دائرة العالم الثالث . . فى دائرة التخلف .

إن الإسلام الحقيقى هو التحرك نحو النور من خلال جوهر الإسلام . . وليس من خلال الشكليات . . من خلال فهم روح الإسلام وليس بالجرى وراء حرفية النصوص التى يراها كل حسب أهوائه ومزاجه الشخصى ، يوم نعى كل هذه الحقائق سوف نصل إلى مطالع الضوء . . وإلى الفجر الصادق . . ونكون مسلمين حقاً . . نعرف واجبنا تجاه ربنا . . وتجاه المجتمع . . وتجاه العالم . . ونصبح جديرين بالانتساب إلى الإسلام ، حيث يوجد النظام العادل فى نظر المسلمين فثم شرع الله . . على حد تعبير ابن القيم . .

المراجـــع

* القرآن الكريم .
* صحيح البخارى .
* تاريخ الأمم والملوك للطبرى .
* حقوق الإنسان فى الإسلام .... د . عبد الواحد وافى .
* العبقريـــات . . .. عباس محمود العقاد .
* الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة .... د . محمد حسين هيكل .
* الخلفاء الراشدون . . . . عبد الوهاب النجار .
* إتمام الوفاء فى سيرة الخلفاء ...... محمد الخضرى .
* هذا هو الإسلام . . .. محمد متولى الشعراوى .
* الفلسفة الإسلامية .. .. د . عاطف العراقى .
* الشريعة الإسلامية .. .. المستشار عبد الحليم الجندى.
* قيـــام دولـــة .... إبراهيم الأبيارى .
* حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب . . . د . يحيى هاشم فرغل .
* محمد رسول الله والذين معه .. .. عبد الحميد جوده السحار .
* فى تحديث الثقافة العربية .... د . زكى نجيب محمود .
* الإسلام والإنسان المعاصر .... فتحى رضـــوان .
* المد والجزر فى تاريخ الإسلام . ... أبو الحسن الندوى .
* الحرب الأهلية فى صدر الإسلام .... عمر أبو النصر .
* قواعد الإسلام . . خمس وخمس ... .. محمـــد صبيـــح .
* الدولة فى الإسلام .... خالد محمـد خالد .
* الدولة والحكم فى الإسلام .... د . حسين فوزى النجار .
* الشيخـــــان .. .. د . طـــه حســـين .
* ذو النورين . . عثمان بن عفان .... عباس محمود العقاد .
* مع الأبطـــــال .. . . محمد رجب البيومى .
* النبـــى العربـــى . . . . أحمـــد التـــاجى .

* **حيـــاة محمــد** . . . . د . محمد حسين هيكل .
* **رجال حــول الرســول** . . . . خالد محمـد خالد .
* **الإســلام وعقـــائده** . ... عبد العزيز حافظ دنيا .
* **القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية** د . ثـروت عكــاشة .
* **الفتوحات العربية الكبرى** . ... جون باجوت جلوب ـ ترجمة خيرى حماد . .
* **العرب تاريخ وحضارة** . . أنتونى ناتنج ـ ترجمة محمود مسعود .
* **هـؤلاء والإســـلام** ... . مأمــون غريـب .
* قرطبة فى التاريخ الإسلامى للدكتور جودة هلال ، محمد محمود صبح
* حديث مع شيخ الأزهر . الشيخ جاد الحق مع المؤلف

الفهـــرس

١٩٦٠

I. S. B. N. 977 - 215 - 021 - 3

دار غـريب للطبـاعة

١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة

ص . ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩